الحالمون لا يفشلون أبدا

محمود كرم

الحالمون لا يفشلون أبدا

أولئكَ السَّاعونَ إلى أنْ يمنحوا الحياةَ بريقاً من فنون البهجة، والحلم والجمال والشغف والإبداع والألق، قد لا يفشلون أبداً، لأنّهم في الأصل توّاقونَ إلى البحثِ عن كلّ ما يجعلهم يعشقونَ طريقتهم في صناعة تلك الحياة. ولأنّهم أيضاً توّاقونَ إلى منح الحبّ لغيرهم، ذلك لأنّهم في الأساس يحبّونَ أنفسهم، وإنّهم قد يشعرون بالخسارة هنا وهناك، لكنّهم يعرفونَ جيّداً أنّ ذلك لا ينتقص من قيمتهم، بِقدر ما يمنحهم أفقاً جديداً في التعلّم والإدراك والمثابرة. ويعرفونَ أنّ ما يُبقيهم خلاّقينَ ومبدعينَ على قيد التنوّع والفنّ والتجدّد، هو أنّهم يعيشونَ خيارهم هذا بوصفهِ أسلوبهم الأجمل في تبنّي حريّتهم العقليّة والفكريّة، لذلك يدركونَ عميقاً أنّ أجمل الحاضرينَ في حياتهم، هو أكثرهم إلهاماً في هذا الاتّجاه، ويجدونَ في جمال هذا المسعى لذّةً في الفهم، لأنّ الكثير من الإدراك المعرفيّ إنّما يتجلّى وضوحاً، في كونهم يتقصَّدونَ دائماً البحث عن المعنى الفلسفيّ لِطريقتهم في الحياة، ومدى تأثيرهُ الجماليّ على رغباتهم وأفكارهم وأساليبهم وإبداعاتهم.

إنّ ما يفعله الإنسان يستطيع التحكّم به في أغلب الأحيان، ولكنْ ما يشعر به، لا يستطيع أنْ يجعله رهن إرادتهِ دائماً، لذلك كم يعاني حين يريد أنْ يجعل الفعل والشعور في وفاقٍ دائم، وقد يستحيل التوافق بينهما، ذلك لأنّ طبيعة الإنسان مليئة

بمختلف التناقضات والتصادمات. وقد لا يعني هذا أبداً أنّه يفقد السيطرة على تناقضاته، لأنّه في الأخير يملكُ أنْ يسترشد بتفضيلاته وأولوّياتهِ في بقائهِ سيّداً على شعوره وفعله. ومن هنا قد تكمن قدرة الإنسان العاقل في التحكّم بشعوره وفعله، بما يتناسب وإنسانيّته في تحقيق الأفضل له ولغيره، فالأصل لديه أنْ ينطلق الفعل مفعماً بشعور الحبّ. الشّعور الذي من غيره يفقد الإنسان إنسانيّته ووجوده أيضاً، ذلك لأنّ شعور الحبّ، هو الأصل في وجود الإنسان على قيد الفعل، الذي من خلاله يسعى شغوفاً ومغرماً، إلى إثبات إنسانيّته المتطلّعة للحلم والألق والإبداع والبهجة والسعادة.

وإذا ما كانَ في سعيّ الإنسان الحالم الشّغوف ثمّة حقيقة، فإنّي أراها تتجلّى جمالاً ولمعاناً في قدرتهِ الإبداعيّة على خلقِ ايقاعهِ الفكريّ، الذي يتناغم توافقاً مع أجمل المعاني التي يوجدها، تحقيقاً لرغبتهِ في ملءِ فضائه الذاتيّ بالتطلّع الحميميّ، نحو ترسيخ وجودهِ إنسانياً، في البقاءِ حرَّاً ومتفلسفاً ومبدعاً وشغوفاً. إنّه في هذا السعيّ الخلاّق دائماً ما يأتي من الغد، ولذلك أحسبه يذهبُ دائماً إلى أجمل الآمال الشاخصة في عقلهِ وقلبهِ، وإلى كلّ ما يتعالق معه جمالاً وحلماً وألقاً، بِالقدر ذاته من الحميميّة والرغبة والشغف. وإنّه في كلّ ذلك يبقى ملتصقاً بأحلامه التي يريدها أنْ تكونَ طريقاً إلى الحياة التي يرى فيها فضاءً يتّسع للحلم والسعادة والمبادرة والحريّة والحبّ. ولذلك يستطيع أنْ يملكَ من عقله وشعوره ما يجعله متسائلاً وناقداً ومبصراً، وشغوفاً في الوقتِ ذاته بطريقتهِ التي لا تبعدهُ أبداً عن استخدام عقله وتفكيره وبصيرته.

دائماً ما كانَ الإنسان عبر الحلم والرغبة والشغف والغرام، قادراً على أنْ يمنح وجوده جوهر الحريّة، ولا يكون الوجود ضروريّاً له، إلاّ لأنّه يتجلّى إبداعاً في حريّته، تلكَ التي يريدها أنْ تكونَ باعثةً على تقصّي منابع الإبداع في ذاته. فالإنسان الحالم في كلّ ذلك، إنّما يسعى إلى أنْ يجد في حريّتهِ أبعاد إنسانيّته، ومِن ثمَّ يملكُ أنْ يمنحها وجوداً في عقله ومشاعرهِ وفي آماله وتأمّلاته، ويستطيع في الوقتِ ذاته أنْ يستلهم منها جمال التنوّع والتجديد والخَلق. ولذلك لم يعد مهووساً بِحتميّة النهايات، لأنّه أصبح يرى في البدايات دائماً نقطة الارتكاز نحو مزيدٍ من البدايات الجديدة، فالشغفُ بِالبدايات دائماً ما تكون مفعمة بالوثبةِ الخلاّقة نحو التجديد والإبداع والمبادرة والحلم والتخطّي والرحابة. بينما التعلّق بالنهايات

عادةً ما تطفىء في الإنسان شغف المحاولة والتجدَّد والاستمراريّة، وتجعله مكتفيّاً بما لديه، على العكس من الشّغف بالبدايات، حيث تجعله دائماً في مدار الرغبة المتجدّدة وفي تخلّقات المثابرة والسعيّ والتقدَّم.

ما أجمل استقصاد المعنى من مرصد الفهم، ذلك هو ما يجعل الحالمونَ المفكّرون المغرمون، يعونَ تماماً ضرورة انفتاح الذات على تجربتها المعرفيّة في التوافق الخلاّق مع انشغالاتها الفكريّة والثقافيّة، طريقاً إلى تبنّي فلسفتها الملهمة. الفلسفة التي ترى في اللذة منتهى التحرَّر من معيقات الأفكار الاستلابية الهادمة، والفلسفة التي ترى في الحلم والحبّ والبهجة، قدرة الإنسان على التخلّص من أثقال التراجع والجمود والتعاسة والخوف والانغلاق. وهيَ الفلسفة ذاتها التي ترى في الإبداع قداسة الذات المفكّرة والحرَّة، وهي الفلسفة التي تؤسس للتعالق المبدع مع تحوّلات الإنسان، ومع قلقه وأسئلته وأفكاره، بناءً على تجربتهِ المعرفيّة في تحقيق ذاته الحرَّة والمفكّرة والحالمة والعاشقة، وهيَ الفلسفة التي تضع الإنسان أمام مسؤوليّته التفكيريّة في اختيار حريّته وعقله وقراره، سبيلاً إلى تمكين قدرته الذاتيّة على التفلسف والتفكّر، وهي الفلسفة التي ترى في كلّ ذلك التوافق الجماليّ بين تجربة الإنسان المعرفيّة وانشغالاته الفكريّة والتفكيريّة، انتصاراً للذات الحالمة في أفق الفهم، وهيَ تتقصَّد المعاني الملهمة في أفكار الحريّة والشغف والرغبة والجمال.

الحالمونَ هُم الخارجونَ على أفكار السائد، والشائع، والعاديّ والمتعارف، إنّهم من خلال ذلك يؤكدونَ بِجماليّةٍ واثقة، على أنّ في موقفهم المستقلّ والحرّ هذا، تقديرٌ مستحقٌّ لِحقّ الإنسان أولاً وأخيراً في أنْ يتّخذ موقفاً، يعزّز بهِ من خلاله أحقيّته الكاملة في الحريّة والاستقلاليّة، والحبّ، والرغبة والحلم، لكنّهم في الوقتِ ذاته، يعتقدونَ دائماً بأنّ أفكارهم وأساليبهم قابلة للنّقد والمساءلة والحوار. فالقيمة الحقيقيّة في فلسفتهم، إنّما تنطلق من الشغف الكامل بحريّة العقل والتفكير والقلب، ودائماً ما تحظى فلسفتهم بِميزة التحرَّر من الأحكام واليقينيّات النهائيّة، وتجاوز استحكامات الأسبقيّات الذهنية، وعدم التأسيس على عقليّة المقدَّس، التي تحصر الحياة والأفكار في اتّجاهٍ واحدٍ ومحدَّد. فالحلم والشغف والرغبة في أفق المعرفة لديهم، يرتكز على التجربة الدائمة، والحريّة المستنيرة، والإبداع الملهم، والتنوّع الخلاّق، والجمال في الفهم.

إنّهم دائماً ما يتركونَ الحقيقة طليقةً وحرَّةً في سؤال العقل، وفي رحابة الشعور، وفي أفق التجربة، ولذلك لا يُمكن أنْ تفشلَ أحلامهم، لأنّها تؤمن بالفِكر والحبّ والمحاولة، سبيلاً إلى الفهم والإبداع والبهجة. فالحقيقة كما يريدونها، تبقى أبداً تتخلّق في حريّة السؤال، وفي تعبيرات الشعور، وفي التماعات التجربة، ولذلك لا تختنق بانسدادات الأجوبة، ولا تُقمع بالكبتِ والانغلاق والقهر، ودائماً ما تتجلّى وتنمو مراراً بِالمحاولة، فهيَ في كلّ رغباتهم وأحلامهم تعتلي مدارج الحبّ والسؤال والمعنى، وقد تأتي من زحام الأفكار هنا وهناك. لكن ليسَ فيها شيءٌ من التعلّق الواهم بأوهام الأفكار السَّائدة واليقينيّات الشموليّة. إنّهم يمضون، وفي كلّ مسافةٍ من رحلتهم في أسفار الحلم والرغبة والشغف، قد يتوقّفونَ ويتساءلون: إلى أين عليهم أن يمضوا؟ ولكي يجتازوا سؤال التوقّفات هذا بِمهارة، ويواصلوا مجدَّداً رحلتهم هنا وهناك، يستعينونَ دائماً بِذاكرة الوعيّ، الذاكرة التي لا تتوقّف عن أنْ تمدُّهم بِتنوّرات الخِبرات والتجارب والأفكار والتساؤلات.

وكم يتجلّى الحبُّ ناصعاً في جوهر الأفكار، التي تتأسَّس على الفعل المتحرّر من التقيّد بأثقال الاكراهات الماضويّة والتوارثيّة، لأنّها الأفكار التي لا يمكن لها أنْ تحصر الحبّ في انغلاقات المفاهيم الخانقة، السالبة لِحقّ الإنسان في حريّة الشعور والعاطفة والحلم. فأقسى ما يعانيه الإنسان، أنْ يبقى يدافع عن حقّهِ في حرية الشعور والعاطفة، أمام مجتمعٍ يتغاضى جهلاً عن حقّهِ في هذه الحريّة، ولذلك يتمسَّك الحالمونَ بحقّهم الكامل في حريّة الشعور والعاطفة والحلم، كَأساسٍ لوجودهم في جوهر إنسانيّتهم. فالحبُّ هنا في هذه الحريّة، يستجلي في الإنسان أجمل ما يمكن أنْ يمتلكه إنسانيّاً ومشاعريّاً وعاطفيّاً، وهو الحبُّ الذي يحقّق انتصاره الأكيد على كافّة الانغلاقات والاكراهات والفروضات الدّينيّة والاجتماعية. ففي شؤون القلب والحبّ ليس أجمل من أنْ يثق الإنسان بِمشاعره وعاطفته، وهيَ تخبره كم يصبح جميلاً حين يستطيع أنْ يتخلّى عن توحُّش الأنانيّة المفرطة، وكم يصبح حرَّاً في مشاعره وأحلامه حين يستطيع أنْ يتخلّى عن التحيّزات الهوياتيّة العدائيّة والأدلجات اليقينيّة الخانقة.

الحالمونَ عادةً ما يجدونَ في استبصار العقل والفِكر، طريقاً إلى قلوبهم المترعة باشتهاءات الحلم، فالعقل في ميزان الحبّ يتحرَّى عن دوافعه في الحكمة والاتّزان والنّبل والتفكّر، والحبُّ في ميزان العقل مدفوعٌ بِشغف المحاولة ووعيّ الرغبة

وبصيرة الحلم، وكلاهما في ذات الإنسان الحالم، يتكاملان توقاً وشوقاً وفهماً إلى إدراك الوجود موضوعاً حقيقيّاً للتفكير والإلهام والإبداع والبهجة، إنّهما يتظافرانِ هنا في صناعة الذات التي تسعى في كلّ محاولةٍ لها إلى هزيمة الجهل والانغلاق والكراهية. لكي تستطيع في المقابل أنْ تقتربَ أكثر في كلّ خطوةٍ لها، إلى معرفة الحقيقة من وجودها على قيد الحبّ والحلم والمبادرة والانفتاح والتنوّع والجمال.

إنّها هنا لا تتملّق الجامد والخانق والمنغلق من الأفكار والتّوجهات، ولا تشارك في حفلات النفاق الجمعيّ، ولا تسعى إلى أنْ تحظى بالأضواء الزائفة، ولا تبارك ثقافة التقديس البليدة، وليس من طبيعتها أبداً أنْ تساير الأوهام وأكاذيب القطيع، بل تبقى كَما هيَ دائماً، فكراً وحبّاً طليقاً في جوهر الحريّة، تتفانى في ابتكار الإبداع والبهجة والضوء والألق، وتتبنّى ما توصَّلتْ إليه في اخلاصها الأجمل لِمعنى الوجود الإنسانيّ، في أنْ يستطيع الإنسان أنْ يشعر دائماً بوجودهِ وحاضره، وكأنّهما كلّ رصيدهِ الوافر لديه أبداً، يستلهمُ من خلالهِ جمال حضورهِ في بقائهِ حرَّاً وسعيداً وعاشقاً ومتفكّراً ومتفلسفاً وحالماً ومحبّاً ومتفانيّاً.

أن تحيا سعيدا في فلسفتك

يكذبون كثيراً أولئك الذين يريدونكَ، أنْ تحيا سعيداً لِمجرد أنّهم سعداءٌ، بمعتقداتهم وأوهامهم واستعراضاتهم وماضويّاتهم. إنّهم فقط سعداءٌ بما هُم عليه، لأنّهم لا يملكون تغييره أو تبديله أو إلغائِه. إنّهم حتّى في هذه يكذبون، لأنّهم يعتقدون بأنّها حقيقتهم المطلقة، بينما قد يرونَ الحقيقة ماثلةً أمامهم في أكثر من اتجاهٍ وأفق وطريق، ولكنّهم ينكرونها تعمّداً وتجاهلاً، ليس لأنّهم لا يريدونها، بل لأنّهم يخشوْنها. يخشوْنَ أنْ تحررهم من التزامهم بمعتقداتهم وماضويّاتهم وأوهامهم ويقينيّاتهم الجماعية، ومنقولاتهم التراثيّة.

إنّهم لا يعرفون حتّى كيف عليهم أنْ يكونوا سعداءً، لأنّهم يظنّون أنّهم قد حصلوا عليها مسبقاً، بمجرد أنّهم قد وُلِدوا على ما وجدوا فيه آبائهم وأجدادهم. فالسعادة في حاضرهم، ليس أكثر مِن التزامٍ بماضويّاتهم ويقينيّاتهم، الالتزام الذي يفرض عليهم يقيناً ثابتاً لا يتغيّر مهما كانت الوقائع والحقائق أمامهم كثيرة وساطعة ومتعددة ورحبة. إنّهم حتّى في هذه يكذبون، لأنّهم يلتزمونَ بما ألزموا أنفسهم عليه مسبقاً ويقيناً مطلقاً، وليس بما اقتنعوا به اختياراً وإدراكاً ووعياً وتفكيراً وتفلسفاً.

تحيا سعيداً كلّما وجدتَ نفسكَ جديداً في عقلكَ وفهمكَ ووعيك. إنّكَ هنا لا تكذب في سعادتكَ، لأنّكَ تعايشها في ذاتك، وتحياها فكراً وتفكيراً وتجدداً، وتتلمّسها عميقاً في أسلوبكَ وطريقتكَ، وفي اختياراتك واجتراحاتك وابداعاتك، وتجني من ثمارها، أجمل اللحظات التي ترى فيها ينبوعاً من صفاء الفهم، يأخذكَ حرَّاً طليقاً إلى معانيكَ وأفكاركَ وتصوّراتك. وتعرفُ في الوقتِ ذاته، أنّكَ لن تنجز شيئاً حقيقياً، إلاّ إذا كنتَ تستطيع أنْ تملكَ سعادتكَ في حريّتكَ واختيارك وفهمك. بينما أولئك الذين يتوهّمون السعادة، ويكذبون في الحصول عليها، يظنّونَ دائماً، أنّ سعادتهم في ثباتِهم على حالهم، وفي ترديد يقينيّاتهم المتوارثة، والتأكيد عليها. إنّهم لا يحاولونَ جديداً، ولا يفكرونَ جديداً، ولا يختارونَ جديداً، ولا يتعلّمونَ جديداً، إنّهم يقبعونَ في سعادتهم المتوهّمة، وكأنّها فوزهم العظيم.

أنتَ لا تكذبُ في سعادتكَ، حين تستطيع دائماً أنْ تمنح حياتكَ بعداً عقليّاً وفلسفيّاً وفنيّاً. لأنّك تعرف أنّ الذات الإنسانية معرّضة دائماً للنكسات والأوجاع والهشاشة، ومن خلال حياتك الفلسفية والعقليّة والواقعيّة، في النظر إلى الوقائع والمجريات والتحوّلات، تستطيع أنْ تتفهّم حاجتكَ إلى أنْ تكونَ سعيداً وقويّاً وصلباً، لكي تمضي هنا وهناك. ولذلك أنتَ تذهبُ إلى يومكَ، وكأنّكَ تعيش كلّ وقتكَ الذي لم تعشه من قبل، لأنّك مسكونٌ برغبتكَ في أنْ تمنح وقتك الجديد جلّ اهتمامك، وتجعله مفعماً بالتفكّر والتفتّح والتأمّل والتجربة. إنّه وقتك الذي تعرفُ أنّه جديدك في التفلسفِ والتبصر، وهو وقتك الذي تشعر من خلاله بسعادتكَ، في كونكَ عارفاً بحالك، ومتفلسفاً في أمورك، ومتفكّراً في أفكارك، وواعياً في اختيارك وقرارك، وحرّاً في عقلك. وتعرفُ أنّه ليس من السَّعادة، أنْ تعرفَ كلّ شيء، بقدر ما تعرفُ تماماً، كيف عليكَ أنْ تتجنّب السقوط في بلادة الأفكار وسذاجة التفكير وضحالة الفهم.

أنتَ تحيا سعيداً، بقدر رغبتكَ الخلاّقة في حياةٍ جميلة ومضيئة ومبدعة. ولذلك تعرفُ جيّداً حاجتكَ الدائمة إلى التفلسفِ، وإلى الفنّ والأدب والفكر. إنّكَ لا تكذب هنا في سعادتك، لأنّك تسعى كثيراً إلى ذاتك، من أجل أنْ تبقى زاخرة بجماليّات الفنون الإنسانيّة، وبإبداعات الأدب والفكر الإنسانيّ. فالحياة الجميلة المتطلّعة للسَّعادة، يقابلها بالتأكيد الاستمتاع بأجمل الفنون والإبداعات الفلسفية والفكريّة، ذلك لأنّ الذات هنا تستقي فنونها في السَّعادة، من فنونها في الإبداع والتفلسفِ والتفكّر. وانطلاقاً من هذه الفكرة، عادةً لا تتردَّد في تركِ كلّ ما ليس حقيقيّاً، وتكون حازماً في ذلك، لأنّك تعرفُ واعياً، أنّ ما ليس حقيقيّاً في تكويناته الجوهريّة، وفي أبعاده وتأثيراته، لا يجلبُ لك السَّعادة، ولا يُمكن له أنْ يمنحكَ المستوى الحقيقيّ من التعالق الإبداعيّ مع أفكاركَ وتفكّراتك واجتراحاتك. إنّكَ هنا تملكُ سعادتك في ذاتك الواعية والمتبصرة، وتحيطها بعلمكَ ومتابعتك ورعايتك، ولكنّك في الوقتِ ذاته، لا تدافع عنها تعصّباً وتزمتاً، وكأنّك قد وجدتَ فيها خلاصاً للبشرية، بل ترى فيها اجتهادك الفلسفيّ، ومستوياتك التفكيريّة، وميولك الثقافيّة

يحدثُ كثيراً أنّكَ تبحثُ طويلاً عن شيءٍ ما، وتحسبُ أنّ فيه سعادتك، وقد لا تعرفُ على وجه التحديد، ما هو هذا الشيء، إلى أنْ تكتشف أنّه الشيء الذي

يعيدكَ سعيداً ومنشرحاً إلى ما كنتَ تفتقده دائماً. إنّها بالتأكيد غريزتك المعرفيّة في اكتشاف جديدكَ، وفي التقصّي عن الأشياء التي تعينك مباشرةً على فهم ذاتك، من حيث إنّها مفتاح الانفتاح على الحياة والأفكار والفلسفات وطرائق التفكير. إنّك هنا لا تكذبُ في سعادتك، لأنّك تراها ماثلةً في سعيك المعرفيّ الدائم عن كلّ ما يجعل عقلك منفتحاً على جديدك واكتشافاتك، لا تركن إلى التفسيرات الجاهزة والسائدة حول السَّعادة، بل تنفتح على تجربتكَ الذاتية في البحث عن أساليبكَ الملهمة، وعن أفكارك الخلاّقة، وتدفعكَ غريزتك المعرفيّة هذهِ إلى تبنّي السؤال، سبيلاً إلى إجاباتكَ المنفتحة دائماً على فضاءات النقد واللايقين. وفي سؤالك المعرفيّ، أنتَ تؤكّد على شغفك الجميل بالحقيقة، فالسَّعادة لا تعني أبداً نفي الحقيقة، إنّما تعني سعيك الفلسفيّ إلى اختبارها وجوداً حقيقيّاً في ذاتك وعقلك، وفي تخلّقاتك المعرفية وفي تساؤلاتك وانشغالاتك الفكريّة. ولذلك تعرفُ تماماً، أنّ لا أحد سيعيش حياتك، فقط تهتمُّ مبدعاً في أنْ تعيشها وتحياها بكلّ حريّتك وشغفك ومتعتك، وتعرفُ إنّك إنْ لم تعشها هكذا، فلا معنى لها في حياتك وفي فلسفتك.

السَّعادة في فلسفتك، تعني دائماً تحرَّرك الواعي من أوهامك. تلك الأوهام التي تحاول دائماً أنْ تجرَّد عقلك من التفكير والاختيار والقرار، وهي الأوهام ذاتها التي تجعلك معتقداً ومتعصّباً، لكلّ ما ليس لكَ حقٌّ في نقدها أو نسفها أو التخلّي عنها. إنّكَ تتحرَّر منها، لأنّك تنزع عنها القداسة الواهمة، وتعرفُ إنّكَ كلّما قطعتَ شوطاً في التحرر منها، وجدت نفسكَ أكثر قرباً من نيل حريّتك واختيارك، وأكثر معرفةً باجتراح أسلوبكَ وطريقتك في الحياة. وكم تعلم حينها إنّكَ تستطيع أنْ تهزم مخاوفك بالعقل والتفكير، وتواجهها بالفكر والمعرفة، وتدرك تالياً كم أنتَ مختلفٌ عن ما كنتَ عليه في الأمس، واسع التفكير، ومنفتح البصيرة، وطليق الفِكر، لأنّك لا تتوقّف عن ممارسة حقّكَ في التحرر من الأوهام، وفي التغيير. وفي الوقتِ ذاته تتمسَّك بحقّكَ كاملاً في تبنّي فلسفتك الذاتيّة حول السَّعادة، وإنّك في كلّ هذا، تستخلص حرَّاً تلك المعاني الجوهريّة من تجربتكَ الذاتيّة الفكريّة، في تعالقاتها المعطاءة، تفسيراً ومعنىً وأسلوباً مع مساعيكَ المعرفيّة هنا وهناك.

وتَعي مدركاً، أنّ حقّكَ في تبنّي فلسفتك، يساوي حقّكَ في وجودك سعيداً. لأنّكَ أصبحتَ تعرفُ أنّ حقّكَ في هذا وذاك، يعادل حقّكَ كاملاً في الاختيار والقرار.

إنّك سعيدٌ في فلسفتك، وفي مقابل هذا، أنتَ سعيدٌ في اختيارك، وما تريد أنْ تعرفه فلسفيّاً، تُظهرهُ حرَّاً في اختيارك وتفكيرك وأسلوبك. إنّكَ تختبر وجودكَ سعيداً، في قدرتكَ الفلسفية المعرفيّة على اجتراح اختيارك، من حيث أنّكَ في هذا المسعى، تتأكّد من أنّكَ تتعافى دائماً من اعتلالات الثقافات اليقينيّة والتلقينيّة، واعياً في الوقتِ ذاته، أنّ هذا الأمر يعكس حقيقة سعادتكَ في اختبار الحرية والاختيار. إنّك لا تكذب هنا في سعادتك، لأنّك تتلمَّسها اجتراحاً وقراراً واختياراً وأسلوباً في فلسفتك، ولأنّك لا تسير بها في طريق مسدود بالانغلاقات والاستحكامات اليقينيّة المطلقة، بل تملكُ من خلالها رؤيةً واسعة، تدفعكَ إلى رحابةٍ شاسعة.

في فلسفتك هذهِ، تشعر أنّكَ تولد سعيداً في كلّ مرَّةٍ. لأنّك تستطيع من خلالها أنْ تُرمّمَ ما قد يتداعى منك هنا وهناك وأنت في مسعى التطلّع والانجاز. ولذلك تستطيع أنْ ترى أفكاركَ وفلسفتك، وما أنتَ شغوفٌ به، تراها كما تحبُّ أنْ تراها دائماً، باعثةً على الأمل والتأمّل والتفاني والجمال والإبداع. إنّكَ تختار سعادتك هنا، لأنّكَ تختار حرَّاً أنْ تكونَ منفتحاً على تجربتكَ في أفق الحياة الوامضة، وفي كلّ هذا أنتَ في الأساس تختبر قدرتكَ الذاتيّة على تخليص ذاتكَ من شرور الانغلاق والتعصَّب والجهل والبؤس والتراجع. وتعرفُ في الوقتِ ذاته، أنّك حينما تؤمنُ بخلاصكَ هذا، قد لا يكون كافياً أبداً، فتسعى واعياً ومتفكّراً وناقداً إلى أنْ ترى ما قد تُظهرهُ لك فلسفتك هذهِ بين الحين والآخر، على أنّه خلاصكَ الذي يمنحكَ حريّتكَ الكاملة في فهم المعنى من تخلّقاتك واجتراحاتك، وما تريد أنْ ترتبط به فكراً وتألقاً وإبداعاً وتفنّناً وجمالاً.

أنتَ تحبُّ فلسفتك هذهِ، وتمضي في أنْ تحيا سعيداً فيها. لأنّك تمارسها وتعايشها، شغفاً وأسلوباً وتطلّعاً، وتعرفُ أنّه بمقدار ما يتوفّر من الحبّ في أفعالك وقلبكَ وأسلوبك، تتوفّر السَّعادة في تعالقاتك المميّزة توافقاً وانسجاماً مع فلسفتك. فأنتَ هنا ترى في سعادتك حبّاً، يجعلكَ أنْ تتأكّد أنّه من غير الحبّ لفلسفتك وفي فلسفتك، تنطفيء في أعماقك الرغبة والشغف والحلم. وتعلمُ أيضاً إنّكَ في هذا المعنى تحديداً، حين تؤمن بالحبّ خلاصاً في فلسفتك، تستطيع أنْ تستشعر في إنسانيّك جمال السَّعادة، وتراها تتمثّل طريقاً في اجتراحاتك وتطلّعاتك. ولذلك أنتَ بين الحين والآخر، تتأكّد من وجودك مبصراً ومتفكّراً في أفق الرؤية، ترعى سعادتك في رحابة حريّتك، وتدعها أنْ تختبر فيكَ رصانة المعنى وجمال الفهم،

وتدفعكَ راغباً إلى إيجاد الحياة المعطاءة، والوافرة بدوافع الشغف والحبّ والحلم. والرغبة هنا في سعادتك، تعني تحديداً أنْ تملكَ معرفتك بجوهر كونكَ سعيداً في فلسفتك، وتتلمسَّها معنىً وأفكاراً وطريقاً وتقدَّماً في انتصاراتك على الانكسارات والتّوقّفات والتراجعات والعثرات هنا وهناك، وفي كلّ هذا تجد أنّكَ تحيا سعيداً في فلسفتك، لأنّها تدفعك دوماً إلى أنْ تكون مخلصاً لكلّ ما تريده أنْ يبقى جميلاً ومضيئاً وثرياً ومعطاءً ورحباً في أعماقك.

الإنسان في فلسفة التعبير

في علاقتنا مع الأشياء التي نحبّها، وتلك التي نريدها ونسعى إليها، دائماً ما نرغب أنْ نشعر بأهميّتها في تكويننا الثقافيّ والشعوريّ. ولذلك عادةً ما نسعى إلى التواصل معها من خلال مهارة التعبير الحر. ومن شأن ذلك أنْ يبعثَ فينا تجاهها جماليّات الارتجال والتلقائيّة والابداع والخَلق والتميّز، بعيداً عن سذاجة التلقينات المعتادة، وضحالة التعبيرات الجامدة والمحدودة.

إنّكَ في أحيانٍ كثيرة، ترغبُ في أنْ تعبّر عن شيءٍ ما يهمّك، أو يعنيكَ تماماً، أو تجده ملهماً لذاتك، أو تعتبره طريقاً إلى خلاصك، أو ترى فيه جمالاً وسحراً، أو إنّه يغنيك عن كثير من أشياء، أو إنّكَ تتواصل معه بِعفويّة مطلقة وتناغمٍ مميّز. وفي كلّ ذلك أنتَ لا تُخفي حبّكَ له، وقد لا تعرفُ تحديداً لماذا أحبّبته، ولكنكَ في الوقتِ ذاته، تراه يجعلك سعيداً ومبدعاً في أسلوبك وتعبيرك، وحتّى في طريقة تعاملكَ مع أوقاتك وأفكاركَ وانشغالاتك وانجازاتك.

بالتأكيد إنّها الأشياء الحرَّة في معانيها وتكويناتها وتنوّعاتها وامتداداتها، هيَ التي تمنحكَ مساحة كبيرة للتعبير عنها. تعبيراً جوهريّاً عن حريّتك في الأفكار والمعاني والاجتراحات، لأنّها تخلو من اشتراطات الفروضات الثقافية الجمعيّة، وتخلو من سلطة التفسيرات السائدة. إنّها تتهادى إليكَ في تعبيراتك الحرَّة والطليقة، وتبادلك متعة الفهم، استيعاباً خلاّقاً لجماليّة الإبداع والتلقائيّة والرحابة، فلا تنحشران في الزوايا المعتمة، ولا تندرجان تحت رتابة التفسيرات الخانقة، ولا تقعان في مهالك التعبيرات الجامدة، لأنّكما في الأصل تتطلّعانِ بشغفٍ إلى جمالية التعبير الحرّ، وتعرفان جيّداً أنّ ما يجمعكما في هذا الفسيح من حريّة التعبير، هو افتتانكما بطريقتكما غير الاعتياديّة في الاحتفاء بالمعنى والفكرة والأسلوب.

إنّكَ لا تستطيع أنْ تجد نفسكَ في مغاليق المعاني الخانقة، ولا في خرائب الأفكار المنغلقة، ولا في سجون التعابير المقيّدة، لأنّك تدركُ أنّ حريّة التعبير في جوهرها الإنسانيّ التاريخيّ، عاكسة بكلّ وضوح لتاريخ الإنسان في تجلّياتهِ

التعبيريّة مع الكلمة والفكرة والمعنى والأسلوب. إنّها حريّتكَ التي تراها تمتدُّ إلى تاريخك الفكريّ وميراثكَ الفلسفيّ، وتجدها دائماً أمامكَ تتمثّل في عناوينها العريضة والناصعة. أنا أفكّر وأشكّ وأتفلسف وأتكلّم. ولذلك تحسبُ أنّكَ في كلّ مرَّةٍ وأنتَ تستدعي جوهركَ الإنسانيّ، تستدعي في الوقتِ ذاته، تاريخ حريّتك في التعبير عن كلّ ما تريد أنْ تتعالق معه قولاً وتعبيراً وفكراً وفلسفةً، وترى أنّ ذلك يعزّز فيك دائماً مهارة التواصل الانفتاحيّ الحرّ، مع أهمّ ما يبعثكَ إنساناً معبّراً منفتحاً، وحرَّاً وطليقاً.

وفي كلّ تخلّقاتكَ التعبيريّة الحرَّة، ثمّة حقيقةٍ تتجلّى أمام تبصَّراتك، تكشفُ بوضوح عن جمال العلاقة في ما بينكَ وبين نزعتكَ الخلاّقة للتعبير الحر. تلك العلاقة التي تنشأ أساساً من وعيك بحقيقة ذاتك، وهيَ تتماهى جمالاً وإبداعاً مع نزعتك التعبيريّة الحرَّة، من حيث أنّك هنا عادةً ما تريد أنْ تمنح حقيقتكَ وجوداً معرفياً وفلسفياً، يتكامل توافقاً مع حريّتك في التعبير، لأنّك تعرف أنّ ما يستحقّ العمل من أجلهِ، هو أنْ تعرفَ كيف عليه أنْ يتوافق اكتمالاً وانسجاماً وفهماً مع حقيقتكَ الذاتيّة في تجلّيات التعبير الحر، وذلك ما يجعلكَ متفانياً في سبيل حقيقتك التي أسستها بوعيّ وجمال، انطلاقاً من حقيقةِ ما تريد أنْ تكون عليهِ دائماً في تعبيركَ الحر.

وفي تجلّيات تعبيرك الحرّ عن معانيك وأفكاركَ وافهاماتكَ وتجربتكَ وتأمّلاتك، تعرفُ أنّك لن تتخطَّى خوفكَ أو ترددك أو قيودكَ أو رواسبك المعيقة، إلاّ حينما تستطيع أنْ تملكَ حريّتك في التعبير، ومن دونها لستَ إلاّ تفسيراً مكرراً في معمعة التفسيرات والتعبيرات الجامدة والهامدة، ولذلك كم تسعى إلى أنْ تملكَ تعبيرك، إدراكاً جميلاً منك بحقيقة حريّتك التي تعرف أنّك من غيرها، لن تنجز شيئاً من حقيقة ذاتك المعبّرة والمفكّرة، فالانجاز في تخلّقاتك المعرفيّة، يعني أولاً تكاملكَ التعبيريّ مع معانيكَ وتجربتكَ الثقافية، ويعني أيضاً تأسيسكَ الخلاّق لملاذكَ الفلسفيّ المستقلّ، الذي ترى أنّه دائماً ما يأخذكَ حرَّاً إلى أجمل ما تريد أنْ تتعالق معه فكراً وتعبيراً وتجديداً وتطوّراً وخلقاً.

إنّكَ تحبُّ طريقتكَ الحرَّة في التعبير، ليس لأنّكَ فقط تريد ذلك، تماثلاً مع ذاتك المفكّرة والحرَّة، بل لأنّكَ وجدتَ فيها أسلوبكَ الذي من خلاله تعرف جيّداً كيف عليكَ أنْ تحبَّ منطقكَ في التعبير، ذلك لأنّ ما تحبّه، تبحث فيه عن منطقكَ الذي

يجعلكَ متوافقاً معرفياً مع تعبيراتك، ومن غير المنطق تخلو تعبيراتك من رصانة الفكر ومتانة المقصد وجمال المعنى، وكم تسعى في كلّ مرَّةٍ إلى أنْ تكون منطقيّاً في تجلّيات تعبيراتك، لأنّك في كلّ مرَّةٍ تسعى إلى أنْ تكونَ ناقداً في متابعة أفكارك وتوجّساتك وقلقك الفلسفيّ، وواعياً في تجربتكَ الثقافيّة أيضاً.

وتعرفُ أنّكَ موجودٌ بِالقدر ذاته من وجودكَ كائناً تعبيريّاً حرَّاً، وتستطيع أنْ تكونَ موجوداً أيضاً، حين تكونُ موجوداً بالقدر ذاته من قدرتكَ على تجاوز ضحالة التعبيرات المقيّدة والمحدودة. فوجودكَ إنساناً وفيّاً لحريّتك في التعبير، يساوي وجودكَ إنساناً قادراً على تجاوز المعيقات والرواسب وانغلاقات التعبيرات الخانقة. ولأنّك موجودٌ عليكَ أنْ تتجاوز دائماً تلك الأبواب المغلقة، التي تسجنكَ عاجزاً في حدود التعبيرات التلقينيّة واليقينيّة. وتعرفُ أنّ وجودك التعبيريّ مرهونٌ بقدرتكَ على البحث عن حريّتك من وراء تلك الأبواب، حيث رحابتك الطَّليقة هناك، تستنطق فيكَ تجربتك التعبيريّة عبر الفسيح من المعنى والفكرة والأسلوب والخَلق.

وكم أصبحتَ تعرفُ أنّه ليس عليك وأنتَ تجترح أسلوبكَ التعبيريّ الحر، إلاّ أنْ تتجنّبَ السقوط في سذاجة التعبيرات الخاوية. فدائماً ما تضع المعنى والفكرة والأسلوب على قيد التأمّل والتفكير والنقد، لأنّك تتعالق مع الأشياء، وفقاً لجمالها وتنوّعاتها الفكريّة الثريّة، ووفقاً لانسياباتها الحرَّة في تجاوز الانغلاقات التعبيريّة. وهيَ الأشياء ذاتها التي تتجلّى تعبيراً حرَّاً وطليقاً ومتنوّعاً وثرياً في حضوركَ المستقلّ وفي فكركَ ووعيك، وكم تشعر برفقتها أنّكَ تعيش وقتكَ وحاضركَ، بكلّ متعتكَ الملهمة في الفهم والتعبير والخَلق، وأنّكَ من خلالها لا تزال تستطيع أنْ تعرفَ، أنّ ما أنتَ عليه من حريّة في التعبير، تمنحكَ شعوراً جميلاً بالاستمرار مبدعاً ومتفكّراً ومتفنّناً ومستنطقاً في براحاتها وآفاقها وعوالمها الشاسعة.

وقدرتكَ على أنْ تملكَ تعبيركَ بحريّة، يعني في المقابل قدرتكَ على أنْ تملكَ من الحقيقة شجاعة المعرفة وبصيرة الانفتاح. بمعنى آخر، كلّما كنت حرَّاً في تعبيرك، كنتَ جميلاً وحقيقيّاً في فلسفاتك المعرفيّة. فالحريّة في التعبير، تعادل تماماً وعيكَ في تبنّي المعرفيّات الإنسانيّة الخلاّقة والمسؤولة. وحريّتك هنا تستدعي بِالضرورة المعرفة الحرَّة، لأنّك تستقصد المعنى الذي يبعثكَ منفتحاً في

تبصَّراتك الواعية، وتعرفُ من خلالها أنّ شجاعة المعرفة وبصيرة الانفتاح، يتوقّفان على ما تملكه من مساحة كبيرة في قدرتك على التعبير الحر، فمنتهى الجمال أنْ ترى في حقيقتك هذهِ جوهر الحريّة. الجوهر الذي يدفعك إلى أنْ تجد دائماً في هذه الحقيقة أصل الإنسان، من حيث كونهِ يبقى أبداً يكتسب المعرفة والانفتاح، إدراكاً ووعياً منه بحقّهِ الإنسانيّ في التعبير والرأي.

وحتّى لو نظرنا إلى الميثيولوجيات الإنسانيّة في التاريخ التعبيريّ للإنسان، نرى إنها كانت تتقصَّد الخروج الحر من العالم الواقعيّ المحدود، إلى رحابة العالم التخيّليّ بكلّ تنوّعاته ومستوياته التعبيريّة، ذلك لأنّ الإنسان عادةً ما يسعى إلى ترسيخ التوافق الرمزيّ ما بين الواقعيّ والمتخيّل، عبر تعبيراته الحرَّة في كافّة أشكال الفنون الكتابيّة، وحتّى الشفاهيّة أيضاً، خروجاً حرَّاً منه، إلى عالم الفنون التعبيريّة، وقد استعان دائماً بقدرته الفنيّة التعبيريّة الحرَّة تلك، في بناء تجربتهِ الميثيولوجية الفلسفيّة والأدبية والفكريّة، ودائماً ما كان ذلك في تجلّياته وتفنّناتهِ التعبيريّة، يعكس توقه الشديد إلى اقتناص الفكرة والمعنى والأسلوب، من شغفهِ الدائم بالإبداع والخَلق في مخاض التعبيرات الحرَّة.

وفي تعبيراتكَ الحرَّة عن كلّ ما يلامس حقيقة ذاتكَ التفكيريّة والإبداعية، تعرفُ أنّ مَن يأتي مفعماً بالأفكار والتجلّيات والدهشات، يأتي في الوقتِ ذاته، حرَّاً بِجرأة التفتّحات المعرفيّة الخلاّقة. ذلك لأنّ الإنسان التعبيريّ، دائماً ما يرى في الحياة وفي تصوّرات الوجود، شيئاً ما في أعماقه وفي تفكّراته ونظراته، يدفعه إلى ابتكار حريّته التعبيريّة، سعياً جادَّاً نحو تحقيق ذاته في انشغالات الفهم والمعرفة. وبِقدر حاجتهِ إلى تطوير ذاته تعبيراً وفهماً واستنطاقاً وإبداعاً، يثمّنُ في المقابل حاجته الدائمة إلى ابتكار حريّته في التعبير. فقيمة التعبير هنا، تعادل تماماً ما في قيمة الابتكار من الخَلق والإبداع والتغيير، إنّه اكتشافه المتجدد لرغبتهِ التعبيريّة في أنْ يتعالق مع الأشياء توافقاً وتكاملاً وتفنّناً واتساعاً على نحو مختلفٍ وملهم.

وما تملكهُ في تعبيركَ من حريّة السؤال والخَلق، تملكهُ في حبّكَ واحساسك، وفي عقلك للأشياء التي تلهمكَ من أهميّتها المعرفيّة والفلسفية، ما تمنح ذاتكَ حقيقتها في ممارسة تكوينها الثقافيّ بكثيرٍ من التدريب والتعلّم. فثقافة التعبير الحرّ تقوم أساساً على فعل التدريب الذهنيّ، لأنّها ثقافة ذاتيّة تتعالق بوعيّ مع حقّ الإنسان

في الاعتقاد والرأيّ والأسلوب. وهي الثقافة ذاتها التي تستطيع أنْ تكونَ للذات المعبّرة ملاذاً حقيقيّاً، تنجيها من رداءة التعبيرات القامعة، ومن استبداد التفسيرات التعبيريّة الشائعة والمكرورة. وكلّما ذهبتَ بعيداً في تعبيراتك الحرَّة، اكتشفتَ الطريقَ إلى وجودك في فسحة المعاني والافهامات.

والسَّاعونَ دائماً إلى تعبيراتهم الحرَّة، يجنونَ دائماً حصاد حريّاتهم في تنوّعات الآراء، وفي ثراء الأفكار، وفي بدائع المعاني، لأنّهم مخلصون جداً لحريّتهم في تناول حياتهم وأسلوبهم، بما يجعلهم قريبينَ تماماً من وجودهم على قيد التأمّل والتفكير والنقد والسؤال. فجمال التعبير في وعيهم، يعني أنْ يملكَ الإنسان من الخَلقِ جمالاً في وعيّ البصيرة، وأنْ يملكَ من شهوة الخَلق تعبيراً في أفق الحريّة، إنّهم يعودون في كلّ مرَّةٍ إلى حريّاتهم، ممتلئينَ بتوقهم الشديد إلى أجمل ما يبعثهم أحياءً وسعداءً في أسلوبهم وطريقتهم التعبيريّة الحرَّة.

الإنسان متفلسفا

الإنسان متفلسفاً، كائنٌ يتخلّق جديداً، كلّما وجد ذاته، وفي كلّ مرَّةٍ حين يجدها، يستطيع أنْ يكتشفها جديداً. لأنّه يتحرك دائماً في اتجاه ذاته المفكّرة والناقدة والمتطلّعة للخَلق والتجديد والتنوّر، ويريد أنْ يجدها. لأنّها تحديداً وحدها التي تستطيع أنْ تخبره بما عليهِ أنْ يكون عليه، إنّها مساحته الحرَّة التي يتهادى فيها خَلقاً جديداً، وفكراً وتطلّعاً، وهي خارطته نحو المزيد من اكتشاف مساحات التجديد في تفكّراته وتفلسفاته. إنّه يستلهمُ من ذاته هذهِ، مهارة التحديق والتواصل والكشف في كلّ تنوّعاتها وجوانبها وتحوّلاتها، ويكتشف في الوقتِ نفسه، قدرته على أنْ يملك حريّته التي من خلالها يستطيع أنْ يختار بوعيّ، كيف يعود إلى ذاته سعيداً بما أنجزه، من تقدمٍ وتجددٍ وتطوّرٍ. وإنّه يكتشف حريّته، لأنّه في كلّ مرَّةٍ يملكُ وعيّ الاختيار في ألاَّ يكونَ مقيّداً بالسائد والشائع والمتهالك، ويعرفُ أنّ الحريّة متى ما كانت وافرة في أعماقهِ، فلن تستطيع القيود هنا وهناك، أنْ تنالَ منه شيئاً. لأنّه في حريّتهِ هذهِ أصبح يملكُ القدرة على خلق مساحته الحرَّة الخاصَّة به، المساحة التي تعينه كثيراً على فهم رأيه الخاص وزمنه الخاص أيضاً، وفهم أسئلتهِ وتوجّساته وقلقه حتّى، وهي المساحة ذاتها التي تحصنه من شرور الانقياد والسذاجة والبلاهة والتكرار.

أنّه يقرر الذهابَ إلى أفكاره هنا وهناك. يذهبُ إليها حاسماً من دون تلكؤٍ أو تردد، ومستمتعاً في الوقتِ ذاته برحلته الشّاقة هذهِ، ويسير بها إلى تصميمه الخلاّق في الفهم والنقد والمتابعة. ففي معركة الأفكار، عادةً ما يخرجُ بأفكارٍ جديدة ومبتكرة، وينتصر فيها للعقل والتفكير. ولأنّه يجد في معركة الأفكار، انتصاراً للمنطق والمعرفة والتجربة، ويجد فيها أيضاً الكثير من جمال التلذذ بالتفكير والاستنتاج والتأويل والفهم. وفي عالم الأفكار هناك دائماً ثمّة خياراتٍ واحتمالاتٍ تدفعه باللجوء إليها، وبمجرد أنْ يمتلكَ الجرأة على المعرفة والفهم، يسعى إلى اجتراحها بمزيدٍ من التفتّح والتفكّر والتساؤل. ولذلك أصبح يعرفُ أنّ الإنسان عليهِ أنْ يبقى متفلسفاً، لأنّه في هذا البعد الذاتيّ من مساحتهِ الحرَّة، يملكُ خياره كاملاً في التفلسفِ، وخياره أيضاً في اللجوء إلى ما يجعله متسائلاً ومفكّراً. إنّه في كلّ هذا التخلّق الفكريّ والفلسفيّ، يعرف أنّ ما يريد أنْ يفهمه، لا ينتظر أنْ يجده في

أوهام العقل الجمعيّ، بل يذهبُ إليه في تجارب قلقه وتفكيره وبحثه واحساسه وسؤاله.

في عقلهِ لا شيء ينتهي، هكذا تجري الأمور معه. فالأفكار في رأسهِ تدور دائماً، وتستمرُّ في حركةٍ لا تتوقّف، لأنّها تنزع دائماً نحو الشّك، ولأنّها تختبر نفسها في التجربة والنقد، ولأنّها تميل دوماً نحو التأمّل والتغيير، ولأنها تتطلّع نحو التفلسفِ والخَلق. وكلّ ذلك من شأنهِ أنْ يجعل عقله مفعماً بالحركة ولا شيء فيه ينتهي. يرتاد أقاصيه المشرعة على الاحتمال والتجربة والمعاني الخلاّقة. إنّه يمضي في عقله هنا وهناك، من دون أنْ يقع في مهالك التفسيرات الساذجة، والأفكار اليقينيّة والثقافات الغيبيّة. لأنّه اجتاز أشواطاً في الابتعاد عن ثقافة اليقينيّات الاستلابيّة، وليس وارداً في عقله أنْ يعود إليها، بعد أنْ نال حريّته العقليّة واستقلاليّته الفكريّة، وأنّه أصبح يحبّ وجوده الحرّ هذا في عقله وفكره.

والإنسان متفلسفاً، يُظهر توافقاً ملهماً مع ذاته التّواقة للتفكّر في كلّ ما يجعله قريباً من الحقيقة، وإنّه في هذا المنحى من الاشتغال الحر على كيانه المستقلّ، يرى أنّ التوافق مع ذاتهِ، هو مقدار ما يساوي توافقه مع الحقيقة، انجذاباً وانسجاماً وتخلّقاً. وقد يرى أيضاً في هذا التوافق، جانباً من حقيقة بعض الأشياء التي لم يكن يلتفتُ إليها من قبل، أو لم تكن في صميم انشغالاته التفكّريّة، من حيث أنّ الأشياء، كما هي أشياءٌ في ذاتها، تأتي مجرَّدة من التصوّرات والافهامات. ولذلك تحتاج منه إلى اكتشافها في سياقات تواصله الدائم مع الحقيقة، وبعيداً عن منطق التصوّرات السائدة. إنّه يتعقّبُ حقيقته هنا وهناك، كما لو إنّها بعيدةٌ وقريبةٌ منه في الآنِ نفسه، وكما لو إنّها غامضة وواضحة له في الحين نفسه، ويجد في هذا الأمر متعة فائقة في الاكتشاف والتبصّر. وذلك لأنّ مقدار توافقه مع الحقيقة، هو مقدار ما في عقله من تفلسفٍ وتفكّرٍ وتساؤل.

وكم يحمل الإنسان المتفلسف، في عقله وفي شعورهِ من محبةٍ كبيرة للمعرفة، لأنها لا تشترط عليه اتجاهاً أو طريقاً، ولا تستبشع فيه وجوده أو خياره، بل تضعه حرَّاً أمام وجوده، مفكّراً ومتسائلاً ومبدعاً ومجترحاً. وليسَ أقسى عليه سوى أنْ يرى في الوجود من حوله صمتاً مريعاً، لا يستطيع أنْ يستنطقه في ارتجافات السؤال، لأنّه الوجود المريض بأعراض الترهل والتراجع والتكلّس والخوف، ولأنّه وحده الذي يستطيع التحديق والرؤية والسؤال. وأكثر الذين هُم

من حوله مصابونَ بِالعمى والتشويش والخرس، إنّهم فقط يأتونَ من صخب الاستعراضات الفارغة، ومن خرائب الجهل والغباء، ومن تقرَّحات الماضويات الخائبة، إنّهم لا يزالون يرون في الإنسان ضعفاً واستسلاماً وخنوعاً واستصغاراً. بينما المتفلسف في وجوده وعقله وحريّته واختياراته، وفي معرفيّاتهِ وميراثه الإنسانيّ، يرى في الإنسان إبداعاً وتميّزاً وتفوقاً وفكراً وقدرةً وحضوراً خلاّقاً، لأنّه الإنسان الذي لا يتخلّف عن عصره، ولأنّه وافر الحركة والعطاء، ولأنّه خالق الفنون وصانع الأفكار.

إنّه يبتكر اختلافه بِأناقة العقل المتفكّر والمتواضع والواثق. فمَن يبتكر اختلافه، تتوفّر فيه في الوقتِ ذاته القدرةِ على ابتكار اختياره، لأنّه يستنطق وجوده وتفلسفاته في رحابة الاحتمال والتجربة والفكر، ودائماً ما يأتي وافراً بالتنوّع والاجتهاد والشك أيضاً، ووافراً بالتأمل والتفكّر. فالاختيار في حساباته يتوقّف دائماً على قدرتهِ في صناعة اختلافه، ولا يعني اختلافه نفياً أو نبذاً للآخر، إنمّا يجد فيه، زخماً معرفياً يتخلّقُ إبداعاً في ثقافة التنوّع والتعدد والتجدد والازدهار، ولا يرى في اختلافه خوفاً من الآخر، أو نفوراً أو توجّساً أو تحيّزاً، أو تصنّعاً أو فراغاً، أو هروباً من الواقع، أو حالةً من الضياع والتّشتت. وفي اختلافهِ لا يأتي مسكوناً بالتوحش، أو الأنانية أو القسوة، أو الرداءة أو البذاءة. ويرى أنّ في اختلافهِ قدرة على أنْ يفعل شيئاً يمنح به من خلاله قراره واختياره أصل وجوده وحريّته، ويمنح به أيضاً عقله كلّ معاني الخَلق والتفلسف والفهم. والأهم في رأيه أنْ يبقى قادراً على صناعة اختلافه وفقاً لوعيه في تعالقهِ مع الآخر إبداعاً وتنوّعاً وجمالاً وتفنّناً، وليس أنْ يرى فيه سعياً للوهم أو الزيف أو التقوقع أو الانغلاق.

وفي تفلسفاته دائماً ما يرى أنّ هناك ثمّة طريقة للحياة، لأنّ التفلسف في أهمّ تجلّياته إنّه يقوم على التجربة، وفي التجربة دائماً هناك مساحة من التأمّل والإبداع. وفي التأمّل الفلسفيّ كم يشعر بِالحياة تتدفّق في عقله، لأنّها تتهادى إليه حرَّةً طليقة في تفكيره وفي تبصُّراته. وكم يحبُّ شعوره هذا، لأنّ الحياة في عقله ملوّنة وتهتدي إلى أكثر من طريقة، ولكنها في النهاية لا تقف على الضّد من إنسانيّته، بل تتوافر فيها إنسانيّة عاقلة وخلاّقة، من حيث إنّها تتعالق جمالاً مع الأنساق المعرفيّة التي تُعلي من شأن الإنسان، عارفاً ومتفكّراً وناقداً وناطقاً وحرَّاً ومتسامحاً ومحبّاً. ويرى أنّ مَن يستطيع أنْ يصنع له في كلّ خطوةٍ، طريقاً إلى

الحياة، لا يسقط في مصائد اليأس أو التراجع أو الانهيار، بل يشعر بِالسعادة، لأنّه في هذه الحالة يملكُ أنْ يمنح ذاته احساساً بالإبداع والتفنّن والخَلق.

وكم تشعر الذات المتفلسفة، بدفق الحياة والضوء والرحابة والالهام في أعماقها، وهيَ تملكُ وجودها بكامل كينونتها، تملكها شعوراً وفكراً وسؤالاً، في مواجهة الوهم والخوف والتردد. فلا شيءَ يجعلها ترتجف في مخاوفها سوى عجزها عن تحطيم أوهامها. ولذلك تتجاوز الوهم ارتكازاً على السؤال والتساؤل والنقد، وتتخطَّى الخوف تأسيساً على المعرفة والفهم والتفكّر، وتواجه السائد انطلاقاً من التفلسف والتبصَّر. ولا يعنيها سوى أنْ تبقى سائرة في دروبها هنا وهناك، تستمتع كثيراً بما تستطيع أنْ تجعله جميلاً ومعطاءً ورحباً وثريّاً في انشغالاتها الثقافية والمعرفية والإبداعية .

والجهد المعرفيّ الذي تبذله الذات المتفلسفة، إنّما هو في الأساس انعكاسٌ حقيقيّ للفهم، انطلاقاً من إرادتها الحرَّة والعقليّة. وهو الجهد الذي ترى إنّه ثمرة التعالقات الجميلة مع كلّ فعلٍ وفكرٍ إنسانيّ معطاء، يسمو بالعقل والشعور والإدراك إلى معارج الوعيّ والتنوّر والخَلق. فالإنسان في تفلسفاته، كائنٌ فكريّ وشعوريّ، يعاينُ بكثب تطوّراته وأفكاره هنا وهناك، ويهوى أنْ يفلسفَ الأشياء والوقائع ويمنطقها، ويمنحها تالياً حضوراً وسبباً ومعنىً ومبرراً وقبولاً حتّى. ولذلك دائماً ما يجد أنّ الذاكرة الإنسانيّة الفلسفية، إنّما هي ذاكرةٌ تتعاقب وتتراكم وتتواصل، وليس عليه سوى أنْ يتلمّس في كلّ هذه التموّجات المعرفية والفلسفية المتواصلة، طريقهُ نحو التغيير والتحوّل والتحديق والتفكّر. وحين يرى أنّه قد أصبح يملكُ مرتفعاً من الفهم والمعرفة، لا يكتفي بذلك أبداً. لأنّه يدركُ جيّداً حينها أنّ الأهم، أنْ يحصل من خلال ذلك على رؤيةٍ أجمل، وجرأةٍ أكثر، ونظرةٍ أعمق، وتفكيرٍ أوسع .

وتأسيساً على ما سبق، أجدني أقول: أنّ الإنسان أكثر من احتمال، وأكثر من مرحلة، وأعمق من ظاهرة، وأوسع من خطوة، وأقدس من فكرة، وأكبر من قولٍ أو وصفٍ أو حالة. إنّه لا ينتهي إلى شيءٍ مسبق أو إلى تفسيرٍ نهائيّ ومطلق، ويريد أنْ يعرفَ عن نفسه أكثر ممّا يظهر منها. ولذلك يبقى أبداً ينظر إلى ما وراء حياته، وإلى ما وراء الفكرة والخطوة والاحتمال والمرحلة. إنّه في كلّ ذلك، يتابع حركته وحياته هنا وهناك في تتابع مستمر.

الإنسان و فلسفة الإختيار

بالتأكيد، ليسَ عليكَ أنْ تندرجَ في اختيارٍ ما، لا تستطيع أنْ ترى فيه ما يجعلكَ تحبّ وجودك أو عقلكَ أو حريّتك. في هذه الخلاصة، تملكُ أنْ تعرفَ سؤال الاختيار، بمعنى أنْ تعرفَ كيف عليه أنْ يكونَ اختيارك، ليسَ تلقيناً بالتأكيد، وليس ميراثاً أو توارثاً، وليسَ نفياً لإرادتك وإدراكك، وليسَ نقيضاً لاقتناعاتك، وليسَ هدماً لذاتك، بل تملكُ أنْ تعرف جيّداً، مقدار ما عليك أنْ تجده في اختياراتك، من حريّة العقل، وجمال الفهم، ورحابة التفكير، وحريّة السؤال، وإرادة الذات، واشتهاء المعرفة، والتماع التجربة.

ليسَ عليكَ أيضاً، أنْ تقع في اختيارٍ ما، لا تراه مناسباً لك، لكنّكَ في الوقتِ ذاته تعرف أنّ ليسَ سهلاً تحقيق ذلك دائماً، لأنّ صعوبته تكمن في أنْ تستشعر بالضبط ما يوجد داخلكَ تحديداً، وكيف عليك تالياً أنْ تصنع من خلالهِ عالمكَ الذي تريده أنْ يكون ماثلاً في حريّتك وأسلوبك وطريقتك، لأنّكَ في داخلكَ تريد أنْ تهتمَّ بتفاصيل ذاتكَ التي تتماهى مع أفكارك وتفكيرك ونظرتك، وكلّما كان هذا الأمر متسقاً ومتوازناً في داخلك، كلّما كنتَ أكثر معرفةً بما عليكَ أنْ تشعر به في ذاتك، وكنتَ في الآنِ ذاته متحكّماً بما تريد أنْ توجده في عقلك، وما تريده أنْ يتطوّر بأسلوبك، وما عليكَ أنْ تعرفه من خلال نظرتك، وكيف عليك في المقابل أنْ تبدأ خطوتك في الاختيار، استناداً على ما تملكُ من التنوّر المعرفيّ والشّعور الخلاّق والأفكار الملهمة وحريّة التفكير، وكلّ ذلك من شأنهِ أنْ يبعثكَ عارفاً بتكوينكَ الداخليّ الذي تريده أنْ يبقى ميزانكَ في هندسة ذاتكَ على إيقاع اختياراتك الحرَّة.

أمّا أولئك الذين يلزمونَ غيرهم باختياراتهم، هُم في الأساس قد ألزموا أنفسهم، بما وجدوا أمامهم من اختياراتٍ محدَّدةٍ مسبقاً، إنّهم لا يملكون في اختياراتهم شيئاً من بصائر التفكير والفهم والإرادة، ولا يملكون فيها أيضاً شيئاً من حريّة العقل والنّقد والتجربة، إنّهم يؤمنون باختياراتهم المحدَّدة مسبقاً لهم، كما لو إنّها قدرهم في الحياة، وكما لو إنّها مصيرهم الذي يرون فيه نجاتهم من الضياع والهلاك، إنّهم في كلّ ذلك يحافظون على إرثهم في الاختيار، وانتماءاتهم الجمعيّة، وتمسُّكهم بما

يجعلهم متأكدينَ من استمرارهم في يقينيّاتهم واعتقاداتهم، ولا يلتفتونَ أبداً إلى أنّ لهم حقّاً إنسانيّاً في الاختيار، لأنّ هذا الأمر ليس متاحاً في ثقافتهم، وليس مسموحاً لهم بالتفكير فيه، إنّهم فقط يؤمنونَ أنّ عليهم أنْ يكونوا مخلصينَ لميراثهم اليقينيّ والتلقينيّ والاعتقاديّ المحدَّد في الاختيار المسبق، وعليهم في الوقتِ ذاته الدفاع عنه، وكأنّه كلَ ما يربطهم بحقيقتهم الكاملة التي يحسبون إنّ فيها خلاصهم الوحيد والأوحد.

أنْ تختار ما تجده حقيقيّاً لذاتك وعقلك وحريّتك وتفكيرك، يعني أنْ تكون سعيداً باختيارك لأنّه الذي تريد أنْ تفهم الحياة معه ومن خلاله. إنّكَ في اختيارك هذا تستطيع أنْ تتعرَّف بوضوح على طريقتك في فهم ما عليهِ أنْ يكونَ أسلوبكَ في تبنّي مسؤوليتكَ التفكيريّة والنّقديّة، لأنّكَ في هذه الحالة تريد من اختياركَ أنْ يكونَ دافعكَ الأساسيّ إلى معرفة الأفكار التي تسعى إلى مرافقتها بمتعةِ الواثق من جمالية انفتاحها الطَّليق على التجربة الإنسانية، وعلى الذاكرة المعرفيّة للإنسان. إنّك في هذه الرفقة الخلاّقة مع اختياراتكَ هنا وهناك، تستطيع أنْ تعرف أنّ الحياة تنطوي على أكثر من حقيقة، وعلى أكثر من صورة واتّجاه، وتعرفُ أنّ الأفكار في الاختيار إنّما هيَ في الأصل تعكس حقيقتك الشاخصة في انشغالات التفكير والنّقد والتجربة، وقد يكفي أن ترى في اختياراتكَ الحرَّة ما تريد أنْ تحبّه من عقلكَ، وهوَ يستنهضُ فيك إمكاناتكَ التوّاقة للاعتناء جيّداً بِطريقتكَ وأسلوبك في تبنّي المعنى من اختيارك وقرارك.

إنّكَ تملكُ أنْ ترى في اختياركَ الحرّ مقدار ما تستطيع أنْ ترى في وجودكَ من حريّةٍ في الفهم والتّحرك والمبادرة والتنوّع، لأنّك لست مقيّداً في اختيارٍ محدَّدٍ مسبقاً، ولأنّك تتمتّع بانسيابيّةٍ في تركِ ما ليس مناسباً لك، ولأنّكَ فوق هذا وذاك، تملكُ من اختيارك حريّة السؤال، حين يتعلّق الأمر بما تريد أنْ تفهمه انطلاقاً من كونكَ كياناً مستقلاً يعرفُ تماماً أنّ له حقّاً إنسانيّاً طبيعيّاً في الاختيار. وفي مقابل ذلك تتمتّع دائماً بِفنون عدم الاكتراث بِكلّ ما من شأنه أنْ يجرُّكَ إلى متاهة المجادلات العقيمة، أو إلى الخوض في السطحيّات من الأمور، أو إلى ما يصرفكَ عن التركيز في الاهتمام بتطوير ذاتك، لأنّك في مسألة الاختيار أولاً وأخيراً تهتمُّ مباشرةً بِمناقشة الأفكار، والسعيّ الملهم في عوالمها وآفاقها، فمعركتكَ الفكريّة دائماً ما تراها في مقارعة الأفكار هنا وهناك، وفي نقدها وتفكيكها ومعرفة

جدواها، وقدرتها على الخَلق والإبداع، وكلّ ذلك من أجل أنْ تحظى بأجمل ما تستطيع أنْ تبتكره جميلاً وخلاّقاً، ممّا يجعلك تتقدَّم حثيثاً إلى أنْ تكون خلاّقاً وملهماً وحكيماً في اختيارك.

أولئكَ الذين يريدونكَ في اختيارهم، لا يهتمّون أبداً إلى ما أنتَ عليهِ من تماثلٍ حقيقيّ وحرٍّ مع اختيارك، فقط يريدونكَ أنْ تكون مثلهم في اختيارهم، لأنّهم يتوجّسونَ دائماً كونكَ خارجاً على اختياراتهم التي وجدوها أمامهم، ويريدونكَ أنْ تؤمن بها كما آمنوا بها إيماناً مطلقاً، ولأنّهم يجدونَ في اختياركَ تهديداً لاختيارهم الذي اندرجوا تحته، من دون أنْ يملكوا فيه حريّة التغيير والسؤال والنّقد والتفكير، ولا يهمّهم في الوقتِ ذاته أنْ يعرفوا لماذا أنتَ لستَ في اختيارهم، لأنّ سؤال الاختيار يرونه مخيفاً ومرعباً لاعتقاداتهم ويقينيّاتهم التقليديّة. فمن يتبنّى السؤال عليه أنْ يكون مدركاً لحقيقة اختياره، وهذا الأمر ليس وارداً في انسدادات ثقافتهم الانغلاقيّة، ولذلك ما يدعو إلى الغرابة الشديدة، أنْ يتعلّق الإنسان باختيار وجده أمامه بمحض التوارث والتلقين، يحتمي به ويتقوقّع فيه خوفاً من اختياراتٍ خلاّقة وحرَّة ومنفتحة، في حين يستطيع أنْ يجد طريقه نحو التقدَّم والإبداع والرحابة، في اختيارٍ يسعى إليه حرَّاً، ويبتكره انسجاماً وتعالقاً وتطلّعاً مع عقله وتفكيره وسؤاله.

ما أنْ تجد نفسكَ أمام الهاوية، حتّى تجد ما يُعينكَ على الظفر به، بالتأكيد إنّه اختيارك الحرّ في مخاض التحوّلات والمراحل والتغييرات، فاختياركَ هنا يعني جودتكَ في الإمساك بما يجعلكَ تحتفظ بذاتكَ المفكّرة والمستقلّة، ويعني أنّك تملكُ أنْ تستمر باختياركَ متفكّراً ومتفلسفاً ومبتكراً ومبدعاً أيضاً، وتعرفُ أنّك حينما تتركُ خلفكَ كلّ أوهامك ورواسبك واختياراتك التوارثيّة والتلقينيّة، ليس أمراً صعباً ربما، بينما تدركُ تماماً أنّ كلّ الصعوبة تكمن في أنْ تملك القدرة على أنْ تفعل كثيراً، تستطيع من خلاله أنْ تمنح اختيارك فعل الحريّة، وجمالية التواصل، وبدائع الخَلق، وفنون المعرفة، ونقاوة التفكير، وجودة القرار، لكي تمضي فيه حرَّاً ومبدعاً ومفكّراً ومتسائلاً وناقداً ومكتشفاً ومتخطّياً وخالقاً وواهباً ومتحديّاً.

مَن يكونون في صلب اختيارهم الحر، يستخدمونَ جيّداً عقولهم، ذلك لأنّ الاختيار الحر لا يكون حرَّاً إلاّ حينما يتّسع لرؤية العقل، تلك الرؤية التي تجعلكَ مكتشفاً

لدوافعك الذاتيّة الخلاّقة في سؤال الاختيار، وهي الرؤية ذاتها التي تجعلكَ ترى أنّ تجربتكَ في رحابة الخَلق والاختيار، ليسَ إلاّ امتداداً حرَّاً لذاكرتك المعرفيّة الإنسانية، الذاكرة الزاخرة بكلّ تنوّعات الفكر الإنسانيّ، وهيَ تستجلي في الإنسان قدرته على التغيير والإبداع والمبادرة، وهي الرؤية التي تجعلكَ تعرفُ أنّ مَن يملكُ القدرة على تحرير اختيارهِ من استبداد العقل الجمعيّ، يملكُ القدرة على فهم اختياره في مخاض السؤال، ولذلك ما أجملَ ذلك الإنسان الذي يستطيع أنْ يجد اختياره الحر في عقله وتفكيره وسؤاله، لأنّه يستطيع أنْ يصنع من اختياره أسلوبه وطريقته وفلسفاته، ولا يبحث عنه أبداً في خراب الأدلجات القوميّة والدينيّة المتهالكة، ولا في تملّقات المذهبيّات الخانقة، إنّه في اختياره الحرّ هذا لا يفكر إلاّ في أنْ يمضي بعيداً في مبادرات ذاته الطَّليقة، يتخلّقُ وعياً شاخصاً في فلسفاته وتفكّراته وتساؤلاته الإنسانيّة الحرَّة.

وقد نتساءل هنا: ماذا لو استطاع الإنسان الذي لا يزال متخشباً ومندرجاً في اختياره المحدَّد مسبقاً، أنْ يبتكر اختياره انطلاقاً من فلسفتهِ العقليّة المستقلّة، ألاَ يشعر حينها بالاشمئزاز والتعاسة والتراجع، لكونهِ لا يملكُ من اختياره عقلاً معاصراً ومنفتحاً وحرّاً؟ ولذلك مَن يملكون اختيارهم، يكونونَ واثقينَ جداً من قدرتهم على الشّعور بحريّتهم، وهذا الشّعور وحده الذي يمنح الإنسان جمال الاقتناع، ليس الاقتناع بما لديه من اختيارات، إنّما الاقتناع الذي يجعله مدركاً مِن أنّه يمضي حرَّاً ومنسجماً في اختياراته التي تتجلّى إبداعاً وتميّزاً في طريقتهِ وأسلوبه وتفلسفاته حول الحياة، ويدركُ أيضاً أنّ عليه ألاَّ يجهل حقيقة ما على الإنسان أنْ يكون عليه دائماً، مِن إدراكٍ لعقلهِ وتفكيره وسؤاله انطلاقاً مِن مسؤوليّته في فلسفة الاختيار الحرّ.

في أن يحضر الإنسان جميلا

أنْ تحضرَ جميلاً، ليس بعيداً في أنْ تكونُ هذه حقيقتكَ أيّها الإنسان، فمتى ما كنتَ قادراً على أنْ تملكها، كنتَ قادراً في الوقتِ نفسه على أنْ تملكَ ذاتك، فالإنسان في جوهرهِ الأخلاقيّ، باحثٌ دؤوب عن ذاته في كلّ ما يربطها بهذه الحقيقة، حقيقة أنّه أصبح يرى في المشترك الإنسانيّ، باعثاً على استنطاق وجودهِ، وفقاً لإرثهِ المعرفيّ الذي يتلخّص في كوْن الإنسان، يبقى مالكاً لذاته واختياره وقراره وحريّته، وامتلاك هذه الحقيقة يعني في الأصل، أنْ يمتلك الإنسان وعيه الذي يجعلهُ يصون ذاته من الانغلاق والتعصَّب والجهل والجمود والكراهية، تحقيقاً مدركاً لِفلسفة الرقيّ الإنسانيّ، ولذلك كان عليهِ أنْ يسعى دائماً إلى أنْ يعمل على إيجاد مشتركه الإنسانيّ مع الآخر، سعياً خلاّقاً لترسيخ قيم الجمال والحرية والحبّ والتسامح والإبداع والتعدَّد.

وفي حضوركَ جميلاً، تحضر إنساناً يعرفُ جيّداً كيف عليهِ أنْ يكون معرفيّاً في توافقه الخلاّق ما بين ذاته والحقيقة، إنّه التأسيس المنطقيّ لفكرة الإنسانيّة في حضورها الثريّ، حين تُعلي من شأن المعرفة طريقاً حرَّاً للحقيقة، وتهتمُّ بالحقيقة فتحاً ملهماً للمعرفة، وما تشعر به الذات وهيَ تسعى للحقيقة، مقدار ما تحملُ في أعطافها مِن فهمٍ، يضعها في صميم تجربتها المعرفيّة، ويدفعها تالياً للتوافق في ما بينها وبين الحقيقة، التوافق الذي يتصالح مع الحقيقة، كونها جمالاً في الطليق مِن الانفتاح الحرّ، وكونها ضوءاً في مسارب التفكير، وكونها ملاذاً حقيقياً للتفكّر والخيال والالهام والتّقصي، إنّها، أيّ الحقيقة في كلّ هذا المخاض الخلاّق، تحرَّر الذات مِن الترهل والجمود والتراجع والانغلاق والتعصَّب، وفي الوقت ذاته تبعث الإنسان جميلاً في حضوره الإنسانيّ، مِن حيث إنّه أصبح يجد في خلاصهِ المعرفيّ الحرّ، سبيلاً إلى فهم الآخر، انطلاقاً من الحقيقة في انفتاحها الطليق على التنوّع والحريّة والجمال والتفنّن.

وكم يجدر بكَ أيّها الإنسان أنْ تعرفَ كيف عليكَ أنْ تخرجَ من سجون جدرانكَ القامعة، ومن سقوفك المنخفضة ومن عتمة كهوفكَ، لكي تشعر أنّ السماء من فوقكَ شاهقةٌ جداً، تتّسع كثيراً لِشساعة التلوينات الفسيحة، ولكي تستطيع أنْ ترى

الأشياء من حولك، وهيَ تزهو تفتّحاً وألقاً وبريقاً في جمال التنوّع والانفتاح والاختلاف والتحرَّر، ولكي تملك من إنسانيّتكَ جميل حضورك، الذي يبعثكَ حضوراً خلاّقاً في أجمل معاني التسامح والنبل والتهذيب، فمن لا يستطيع أنْ يخرج من آفاقهِ الضيّقة والمعتمة، يسرفُ كثيراً في حماية ما لديه من تعصَّبٍ وانغلاقٍ وتوحشٍ وتراجع، لأنّه يرى في الآخرين تهديداً لذاتهِ القابلة والقانعة بِالعقائد والثقافات السالبة لحريّته وفكرهِ واختياره وقراره وإرادته، بينما مَن يجيئون جمالاً وانفتاحاً وتحرراً، يكشفونَ عن براعة الحياة في تجلّيات الافاق المشرعة على الجمال والحريّة والحبّ، ويعرفونَ كيف عليهم أنْ يكونوا بشراً أخلاقيين، لأنّهم في كلّ ذلك يملكونَ أنْ يستخلصوا من وجودهم، جمال المعاني في الحياة الدافقة بالعطاء والحركة والإبداع والتجديد.

إنّنا عادةً ما نتوهّم، بأنّنا قد عثرنا على أجمل ما في ذواتنا، ونتغاضى في المقابل عن ما لدى الآخرِ من جمال الأخلاق والشعور، ولذلك أجد أنّ مَن يسعى إلى اكتشاف الأفضل ما لديه، يكونُ في المقابل قد اكتشفَ الأجمل ما لدى غيره، ومن هنا أستطيع القول، أنّ أولئك الذينَ يتركونَ شيئاً من جمال مشاعرهم في أعماقنا، نعود نراهم دائماً في أجمل مشاعر الشّوق إليهم، إنّهم حين يتركونَ شيئاً من مشاعرهم في أعطافنا، يتركون معها أشياءً من أشواقهم، وأشياءً من الحبّ في قلوبهم ، لأنّهم يرون في حضورهم حضورنا، ولأنّهم في حضور الإنسان جميلاً، يحضرونَ جمالاً في مشاعرهِ وأخلاقهِ وحبّه وعاطفته، إنّهم يعرفونكَ من إنسانيّتك وليس من دِينك، ويعرفونكَ من أخلاقكَ وليس من مذهبك، ويعرفونكَ من نظافتكَ وليس من عقائدك، ولذلك عندما تعثر على الكثير من الجمال الذي فيك، ستجد أنّ أجمل الذي فيك، في الكثير عندهم، وهكذا أنتَ تحضر جميلاً في الجمال الذي فيهم، ويحضرون جمالاً في الجمال الذي فيك، ويحضر المشترك الإنسانيّ الذي بينكما، في أجمل تجلّياته الأخلاقيّة والشعوريّة والفلسفية والثقافيّة، لأنّه المشترك الذي يُعلي من قداسة الإنسان عقلاً وفكراً وأخلاقاً وشعوراً وحضوراً.

فنّ الحياة، كما أحسبه دائماً، هو فنّ التعالق والتقدَّم الأخلاقيّ مع الآخر، إنّكَ لا تستطيع أنْ تخلقَ مِن الحياةِ فنّاً، ومن الفنّ حياةً، إلاّ حينما تجد أنّ الآخر يملكُ في أنْ يمنحكَ من أخلاقهِ أخلاق الثّقة الكاملة، في أنْ ترى نفسكَ على نحوٍ جديدٍ وأجمل، وهو الآخر لا يحضر جميلاً، إلاّ حينما يرى ذاته وقد تعالقتْ وتقدَّمتْ

أخلاقيّاً مع وجودك، إنكما في هذا الفنّ من صناعة الحياة الجميلة، تتشاركان في تقديم الأخلاق، على إنّها جوهر المشترك الإنسانيّ بينكما، أخلاق التكامل الذي يتأسَّس إنسانيّاً على فنون التوافق الشّعوريّ، والتداول والتبادل الثقافيّ، والانسجام العاطفيّ، وإنّكَ في هذا التكامل الأخلاقيّ، تستطيع أنْ ترى في الآخر جانباً جميلاً تزخر به أعماقه، والآخر يستطيع أنْ يتحسَّس جانباً جميلاً في أعماقك، فالأمر يتوقّف دائماً على جمالية التكامل الأخلاقيّ في صناعة فنّ التعالق الإنساني بينكما، بحيث إنّكَ تستطيع أنْ تشعر بما عليكّ أنْ تشعر به جميلاً تجاه نفسك، حينما تتكامل حضوراً أخلاقيّاً مع الآخر، والآخر أيضاً يستطيع أنْ يشعر بما عليهِ أنْ يشعر به جميلاً تجاه نفسه، حينما يتعالق معك أخلاقيّاً في فنّ التكامل.

وشخصياً أعتقد أنّ في أيّ حقيقة ما، دائماً هناك جانبٌ أبيض، وقد يتّسع لِحقيقةٍ أجمل وأنصع، لأنّه الجانب الحافل بالنوايا الإنسانيّة البيضاء، وعادةً ما يتجسَّد هذا الجانب في سلوك أولئكَ الذين لا يكترثون بالأشواك والأقاويل الفارغة، ولا يلتفتونَ إلى الأدلجات الطنانة والمذهبيّات الخانقة وبريق الأضواء الزائفة، فنراهم ينثرون الورد والحبّ والضوء هنا وهناك، ويمضونَ خِفافاً إلى اشتياقاتهم وأفعالهم وتطلعاتهم، وفي قلوبهم من دفق الحياةِ، أحلامٌ وآمالٌ وأمنيات، إنّهم يرون في الامتنان لك ولغيرك بالمحبّة والسعادة ما يبعثهم إنسانيين، يحضرونَ اعترافاً بِجمال حضورك إنساناً في صناعة الحياة الجميلة، الخالِية من التشوّهات والزيف والنفاق والتعالي، وحتّى لو اختلفتَ معهم في الرأيّ، إلاّ أنّهم يبقونَ معك دائماً، لأنّهم يحملون جمالاً في القلب وتنوّراً في الفهم، ولا تستطيع إلاّ أنْ تكون أيضاً ممتناً لهم، لأنّهم يشاركونكَ بمحبّةٍ وودٍّ وصدق، ذلك الجانب الأبيض من حقيقتكَ وحقيقتهم.

وكم أحسبُ أنّ الحياة تصبح ممكنة، إذا ما تركناها حرةً ورشيقةً، تنسابُ بالتنوّعات والألوان في عقولنا ومشاعرنا، وكم ستكون قاتمة وجامدة ومتراجعة، إذا ما جعلناها تندرج تحت لونٍ وتفكير واعتقاد واحدٍ وأوْحد، إنّها في هذه الحالة تموت من فورها، ولا تملكُ شيئاً من أسباب الألق والحريّة والشساعة والتنوّع، وكم يصبح الإنسان فيها عاجزاً وبائساً، لا يشعر بلذة الجمال في التنوّع والتعدد والرحابة، فالحياة عموماً تمضي ولا تكترث بِمَن لا يجاريها أو لا يحبّها، ولذلك أولئكَ الذين يحضرون جمالاً في تنوّعاتها وألوانها ورحابتها وسفوحها الطليقة،

يدركونَ أنّ سعادتهم تعني أنْ يروها تتمثّل جمالاً في عيونهم وفي عقولهم ومشاعرهم، فأجمل ما يمكن أنْ يفعلوه، وهم في تدفقات الحياة، أنْ يروا إبداعاتهم وانجازاتهم وتطلعاتهم وآمالهم تكبر دائماً في ما يحبّونَ من حياتهم، ويملكون في الوقتِ ذاته مهارة التواصل الخلاّق مع كلّ مِن يشاركهم متعة هذه الحياة حضوراً وإبداعاً وتفنّناً ورغبةً، وكلّ ذلك يجعلهم يحافظونَ على بقاء الحياة، دافقة بالجمال والتخلّق في نبضهم وشعورهم وأفكارهم.

وقد نتساءل: لماذا الورد يحضر جميلاً دائماً؟ نستطيع أنْ نقول من غير اسرافٍ أو مبالغة، لأنّه لا يعرفُ غير لغة الحبّ، فالحبّ في حضورهِ، لغته وعنوانه وصفته وعلامته الفارقة، ومتى استطاع الإنسان امتلاك الكثير من الحبّ تتضاءل كثيراً الكراهية في شعوره ومشاعره ولغته وحياته، لأنّه يحضر بالقدر الوافر من الحبّ، والذي من خلاله يستطيع أنْ يجد فيه إنسانيّته وعاطفته وشعوره ورغباته، وحتى أحلامه، ولأنّه باتَ يعرفُ أنّ حضوره جميلاً يتقلّد الحبّ عنواناً وصفةً وسلوكاً، يجعله مدركاً لحاجتهِ إلى أنْ يكونَ سعيداً ومنشرحاً ومنفتحاً في حياته وفي علاقتهِ مع الآخر، وبذلك يمضي إلى غدهِ مفعماً بما يحقّقه من حبٍّ لغيره ولنفسه ولوجوده، ويكون في الوقتِ نفسه، قد امتلكَ ما يكفي من الحبّ والحياة واللحظات السعيدة، يتداوى بها ثباتاً واصراراً في مواجهة الكراهية هنا وهناك.

لن تعيشَ أيّها الإنسان بائساً أو تعيساً ما دمتَ قادراً على منح الحبّ لِغيرك، لأنّكَ في هذا الجانب من إنسانيّتكَ تعرفُ كيف عليك أنْ تحبَّ ذاتك أولاً، طريقاً إلى محبّة غيرك، وكيف عليكَ أنْ تحضر جميلاً أمامها ثانياً، وإنّك في كلّ ذلك تعرف جيّداً كيف عليكَ أنْ تصغي لذاتك، وهيَ تقودكَ خلاّقاً إلى أنْ تبحث عن الجمالِ في ذات الآخر، وتعرفُ أنّ الأشياء الجميلة في أعماقك وأعماق غيرك، ومن حولك هنا وهناك، لا تخلو من العظمة والبهاء، لأنّها دائماً ما تبقى حقيقيّة في إدراكاتها للمعاني الفسيحة والملهمة والخالقة، وهذه المعاني التي تجدها تأخذكَ إلى الجمال، هيَ ذاتها التي تحسبُ إنّها تستطيع العودة بكَ إلى الأجمل في ذاتك، وتضعكَ مجدداً في صميم الحبّ والحريّة، وتبعثكَ جميلاً في حضورك الإنسانيّ، فهي باختصار تجعلكَ إنساناً تستطيع بكلّ ما تملكُ من إنسانيّة الشعور بالحبّ والجمال، ألاَّ تحضر كارهاً أو شاتماً أو لاعناً، أو حاقداً أو جاهلاً أو متسلطاً أو

عنيفاً أو مبغضاً، أو مستبداً أو منافقاً أو وقحاً أو متعالياً، فتحضر جميلاً، وترى في إنسانيّتكَ جمالاً وتهذيباً وتحضّراً.

الحياة في فلسفة الحرية

ربما أولئك الذين يروْن الحياة ، على إنّها عابرةٌ مميّزة ومتميّزة ، في السائِد من العبور المعتاد ، ويروْنها استثنائيّة ، خارجة على قانون العدم . هُم الذين يجدون سبباً ، يجعلهم يحتفون بها على طريقتهم الخاصَّة .

هذه الحياة في نظرهم ، تستحق أنْ تحيا في أسلوبهم وفي طريقتهم ، كما هم أرادوا لها أنْ تكون . محتفِظةً بِمستوياتها التي تتخلّق دائماً في مخاضات الحريّة والإبداع والتفكّر . إنّهم يمضونَ في حياتهم ، مفعمينَ بالاحتجاج والرفض والتّحديق والتساؤل ، ويمضون وهم يحملون في أعماقهم آلامهم الشّعوريّة والفكريّة والتفكيريّة ، ويتحسَّسونَ طريق الحريّة في خطوهم هنا وهناك وفي عقولهم يتوهّج ذلك الوعيّ الناقد والمُبصر . وكلّ هذا الذي يعتملُ تبصَّراً وفهماً في عقولهم وفي وعيهم وتفكيرهم ، يساوي ما في داخلهم من إنسانيّة خلاّقة ومتفانيّة وباعثة على الخَلق والتّجديد والتفلسف .

إنّهم يستيقظونَ سريعاً من أوهامهم ، وينفضونَ آثار الخرابِ عن عقولهم ، ويمضون إلى حياتهم ، تدفعهم نشوة البحث عن حقائق ذواتهم . تلكَ الحقائق التي يجدونها بارقةً في مخاضات الشّك . إنّه الشّك الذي يزيل عن أفهامهم تراكمات اليقين ، ويدركونَ عميقاً بأنّ اليقين ثمالة العقل الخامل والجامد والمستكين . ويستهويهم في هذا المسار تدفّقات الضّوء الطالع من بروق الادراكات الوامضة بِوعيّ التواصل الخلاّق مع أفكارهم وشكوكهم الدافعة للمزيدِ من اجتراح صيغ التفكير النقديّ .

إنّهم يختارونَ أنْ يكونوا في تحوّلات الحياة وتقلّباتها منتصرينَ . ينتصرون لتلك اللحظات التي قد منحتهم لذّة التواصل الجميل مع أفكارهم وقلقهم وانشغالاتهم الذهنيّة . هذا التواصل باعثٌ حقيقيّ على التّجديد والتغيير والممارسة النقديّة . وفي الوقتِ ذاته يتقبّلون هزيمتهم في تقلّبات الحياة بأناقةٍ فائقة . لا تأكل الهزيمة من إرادتهم ، ولا تستطيع أنْ تركنهم على دكّة التراجع أو الاستسلام أو الخوف ،

بل تمنحهم تلك الأناقة الفكريّة تجربةً في الهزيمة . التجربة التي في استطاعتها أنْ تكونَ إلهاماً مفعماً بالتعلّم من جديد ، والتّدرَّب على مهارة التخطّي والتجاوز والإنجاز .

إنّهم يذهبونَ إلى أحلامهم كما لو أنّهم يولدون من جديد ، وكما لو إنّها تولد فيهم جديداً في كلّ مرَّةٍ . فقط يذهبونَ ، وفي قلوبهم تسعى تلك الأحلام حرَّةً طليقةً إلى مبتغاها ، وإذا لم تكتمل ، يتركونها تتهاوى في الفراغ ، لا يتأسَّفونَ عليها . يتركونها تتهاوى . ففي كلّ هاويةٍ ، هناك ثمة حلمٌ آخر ينبثُ من ذاكرة العدم . إنّهم في كلّ هذا المخاض الخلاّق لا يتوقّفونَ عن اجتراح الأحلام ، ولا يتوقّفونَ عن استدعائها من أقاصي الأضواء الساطعة في أذهانهم الحرَّة .

وإنّهم يمضونَ في حياتهم سعداءً ، متخفّفينَ من أثقال الكراهيّات واليقينيّات الاستلابيّة ، ومتحرّرينَ من الأوهام والهويّات الخانقة والثقافات الهادمة ، ومنعتقينَ من النصوص القامعة للتفكير والفرديّة . لأنّهم لا يجدونَ أيّ منطقٍ أو سعادةٍ أو جمال أو حرّيّةٍ أو إبداعٍ أو تطوّرٍ في كلّ تلك الأقفال والمعاقل والسجون والمتاهات المظلمة . أنّهم يدركون حياتهم سروراً وألقاً وتخلّقاً وتفنّناً وجنوناً وجمالاً وإبداعاً ، بعيداً عن كلّ تلك المعيقات والمنزلقات والأقفال والدروب المعتمة ..

المتردّدون يكتفونَ من الحياة بالوقوفِ على أطرافها ، بينما الواثِقونَ والأحرار والعاشقون ، يعيشونَ في صلبها . ويذهبونَ دائماً إلى عمقها ، ففي عمقها هناك جوهر وجودهم ومعنى حضورهم . إنّه الجوهر الذي يكشف عن براعتهم في فنّ التواصل مع الحياة . هذا التواصل الذي يتفلسفُ جمالياً مع فكرة المسافة واللحظة والمتعة . إنّهم يضعونَ كلّ تلك الأشياء قيد التداول مع الجمال والوعيّ والشغف واللذة . وفي معنى حضورهم تتجلّى قدرتهم على تحقيق ذواتهم في مستوياتها الواعية . إنّه الحضور الذي يتعالقُ وعياً وتفكيراً وإرادةً مع نزوعهم الخلاّق نحو الفهم الحرّ لمعاني الذاتيّة في انحيازاتها الشاخصة إلى جانب العقل والتفكّر والنقد والمساءلة والإبداع ..

والإبداع في ثقافتهم معنيٌّ أولاً بخلق حياةٍ حرَّةٍ ومبدعة ، تملكُ قدرة التعاطي الحرّ مع الأشياء والأفكار والمعاني . تملكها دائماً من أجل أنْ تمنح الحياة نفسها إبداع الحياة . فالحياة ليسَ في مقدورها أنْ تبقى حياةً نابضة بالألق والتّدفّق والانسياب والحركة ، إذا كانت غير قادرةٍ على أنْ تكونَ حياةً مبدعة في تجلّيات الألوان والأضواء والأفكار والاختراعات . ومن هنا نستطيع أنْ نفهم معنى أنْ تخلق الحياة حياتها في إبداعٍ متجدّدٍ وحرّ ، لكي لا يطمرها ركام السَّائد والمعتاد والجامد والمألوف . ولذلك يبقى المفتونونَ بذلك البريق الذي يشعُّ في عيون الحياة المبدعة ، على تواصلٍ دائم مع حياتهم بِذات القدر من إبداعات الحياة في أفكارهم وفي آفاقهم الرحبة وفي تجلّياتهم الوامضة بالتّفرّد والذكاء والإلهام .

ولكي تدركَ حقّكَ في الحياة ، عليكَ أنْ تعرفَ جيّداً معنى أنْ تخوض معركة الحريّة . تخوضها بكلّ ما تملكُ من رصيد الاحتمالات والإبداعات والخبرات والإرادات الخالقة . تخوضها لأنّكَ لا تملك خياراً غير خيار أنْ تبقى تملكَ حقّكَ في الحياة . هذا الحقّ الذي يجعلكَ إنساناً واسع الإدراك وشاسع الفهم ومالِكَ الاختيار وبارع التّمكّن وخالق اللحظة . إنّكَ في حريّتكَ هذه تخلقُ حقّكَ في اجتراح مستوياتك وحالاتك وأفكارك واختياراتك وافهاماتك وتجلّياتك الفلسفيّة والحياتيّة .

والحياة في فلسفة الحريّة ، تستنهضُ الرغبة من أجداثها ، وتمنح الفعلَ إرادة الفعل ، وتمنح الإرادة وعي الخَلق ومهارة الاختيار . إنّها تسير في اختياراتها وفقاً لإرادتها في اختراع ما يجعلها قادرةٌ على فعل التخطّي والتعالق والتجربة . فالاختراع في قانونها جمال وجودها . إنّه الاختراع الذي تستجلي من خلاله قدرتها على اختراع الجمال وابتكار الحريّة ، فهما الأساس في حياةٍ لا تموت ، وفي حياةٍ مترامِيَة الآفاق والاحتمالات والتخلّقات . إنّها تجد نفسها في ميراث الجمال والحريّة دائماً . إنّه ميراثها الإنسانيّ الذي يتناسلُ وجوداً وتخلّقاً وإبداعاً وتفنّناً .

ولا يسبقُ هذه الحياة إلى الحياة ، إلاّ هذه الحياة ذاتها . إنّها تسابقُ ذاتها في مضمار التفوّق . وإنّها تسعى هنا وهناك ويسبقها شغفها في أنْ تكون نفسها ، تلك

الطامحة لمدارجها في التألّق ، والباعثة على جنونها ، والسائرة إلى أشواقها واشتهاءاتها بذات الشغف الذي يسبقها . إنّها مدفوعةٌ بالشغف الذي يسكن أعماقها وأعطافها ومعانيها . ولذلك تسير ويسبقها شغفها . يسبقها لأنها تحيا فيه وتعيش معه وترتحلُ به ، وتعود إليه وتنطلق منه ، وهكذا لا تتوقّف عن أنْ تكون ماضية في شغفها إلى شغفها .

ولأنّهم يرتادونَ دائماً جداول الضّوء ، نجدهم يبتكرونَ بِمهارة مساحاتهم الوضّاءة والمستنيرة ، ويمنحونها رحابةً من حريّة المعنى ومستويات الخَلق وفنون الاشتهاء . إنّهم يبتكرون مساحاتهم التي لا تضيق على الفِكر والتفكير، وتتّسع كثيراً للإبداع والتّقدم . ولا تنغلق أمام المحاولة والتجربة ، ولا تتلكّأ في تردّدٍ أو تراجع ، وتمضي إلى بعيدٍ من مساحاتٍ حرَّة . إنّها تنتقلُ بهم وينتقلونَ بها من كثيرٍ إلى أكثر ومن طريقٍ إلى آفاق ومن شساعة إلى مراحاتٍ تتهادى بالإلهام والتدفّق ، وتنساب بالتواصل وشهوة الاستمرار .

وفي فلسفة العقول الحرَّة ترتكز الحياة كاملةً على الحريّة ، وعلى منحها حريّتها في الانسياب والتعالق والتواصل والتجدّد والتخلّق . الحريّة التي تعني اكتشاهم لذواتهم عبر الارتكاز على وعيّ الاختيار ، ووعيّ التمرّد الخلاّق ، ووعيّ الذات في كلّ تخلّقٍ جديد . فمع كلّ تخلّقٍ هناكَ ثمة وعيّ يستنطق في أعماقهم جدوى أن يكونوا على قيد الحياةِ ، وهم يكتشفونَ روعتها في حريّتهم ، ويكتشفون براعتها في اختيارهم ووعيهم وقرارهم . فاكتشاف الذات وتعالقاتها الخلاّقة تعني في الأصل اكتشافهم للحريّة في أعماقهم وفي اختيارهم وفي تفكّراتهم وتفلسفاتهم . إنّهم يريدون من الحياة أنْ تتواصل مع حريّتهم بذات القدر الذي تستطيع أنْ تتواصل به مع اختيارهم وقرارهم وتخلّقات تفكيرهم وإبداعهم ومجازافاتهم الفكريّة في ميدان النقد والتحديق والبحث .

وإذا ما تساءلنا : لماذا يحبّون الحياةَ في عيون الحريّة ؟ لأنّهم يجدون في الحريّة حياتهم ، ولأنهم يحبّون حريّتهم كما لو إنّها حياتهم تماماً ، ويحبّونَ حياتهم كما لو إنّها الحريّة التي تملكُ أنْ تتجسَّد في عقل يتحدَّث وعياً وفهماً وتفهماً ، وفي قلبٍ يركض مستهاماً نحو شغفه ، وفي روحٍ توّاقة للجمال والتألّق ، وفي إحساسٍ

يتوهّجُ اشتعالاً باللذة والنشوة والمتعة ، وفي شعورٍ يملأ أعماقهم بِالعنفوان والتجلّيات والألق . إنّها الحياة التي تشبه قلوبهم وتشبه أعماقهم وتشبه حريّتهم وتشبه ذواتهم وتشبه جنونهم ومجازافاتهم وتخلّقاتهم ، وتتماثلُ اشتهاءً مع رغباتهم وفلسفاتهم وآمالهم وتأمّلاتهم ، وحتّى مع أحلامهم .

وأجمل معنى للحياةِ في فلسفتهم ، أنْ تكون ناطقة بِالمعاني ، وأنْ تنساب بالمعاني . تلك المعاني التي تضعهم أمام ذواتهم ، يكتشفون من خلالها قدرتهم على المضيّ دائماً في اجتراح المعنى من تعالقاتهم مع الحياة ، وكيف عليهم أنْ يستخلصوا من معاني الحياة معاني الحريّة ، ومن معنى الحريّة معنى الحياة . إنّها المعاني التي تستجلي معانيها في مخاض الحريّة . في الاحتمال والتجربة والتجاوز والخروج على المألوف والمكرَّر والساكن والباهت . وهيَ المعاني ذاتها التي تملكُ خاصيّة الحياة المتجدّدة والخالقة والواثبة والملهمة .

هذه الحياة حياتهم ، تتجلّى مبدعة وملهمة وفاتنة في غواية التمرَّد وفي دهشة الخَلق وفي غرام الغرام وفي فِكر التساؤل وفي ثقافة التّحرَّر . هذه الحياة تغدو باعثة على الخَلق والتنوّع والتجدَّد والامتداد ، وتصبح في عيون مرتاديها شهيّة وجاذبة . لأنّها لامعة بالألوان ، وبارعة في الانسياب والدفق والاستمراريّة ، وثريّة في الأفكار والمعاني ، ودافقة بالتساؤلات والتأملات والاستنطاقات ، وزاخرة بالآفاق الحرَّة والتنوّعات والتلوينات ، ومفعمة بِتفتّحات التفكير والتجربة والتخطَّي ، ومترعة بالاشتهاء ونشوة المعرفة ولذة الفهم .

هذه الحياة تستطيع أنْ تخبركَ وأنتَ في رفقتها مجترحاً ومبدعاً وخالقاً ، أنّ هناكَ دائماً ثمة أكثر من طريقةٍ للحياة . إنّها تجعلكَ قادراً على خلق اسلوبك ومستوياتكَ ومساحاتك ، لأنّها لا تسير في عتمةٍ خانقة أو في أفق مسدود أو في طريقٍ مقفل . إنّها تنمو وتكبر ، وتبقى نابضة بالضّوء والحركة والتّوثب في أعماقك . إنّكَ تحافظُ عليها هكذا دائماً ، لأنّك تريدها أنْ تبقى في أعماقكَ هكذا ، تملكُ جمالية التفوّق والانتصار على كلّ الخرابِ من حولك ، وتجعلها هكذا في أعماقكَ نابضة ودافقة ومشعَّة ، نكايةً بِكلّ ما من شأنهِ أنْ يطمركَ تحت الحطام والجمود وركام الظلام والتخلّف . هذه الحياة هيَ حياتكَ التي أردتها ، وملكتَ اختياركَ في أنْ

تحيا فيها هكذا ، وأنْ تتناغمَ في أعماقكَ هكذا . حياةٌ لا تقاتلُ من أجل غاياتٍ واهمة ، ولا تدافعُ عن معتقداتٍ خائبة ، ولا تكترثُ بِمن ليسَ في مقدورهِ أنْ يهضمها أو يحبُّها .

ذات حلم

ربما أجملَ ما تظفر بهِ وما تستطيع أنْ تجده ، أنْ تكون في غواية الحلم . تقترفُ متعة وجودك في أصلِ وجودك . وأنْ تأتي بكلّ وجودك متوّجاً بالحلم في دهشة الخَلق . وأنْ تجد ذاتك تشتهي ذاتكَ حلماً في مخاض التجلّيات الملهمة .

الحلم طقسٌ شديد الحضور يتجلّى سطوعاً في اشتهاءات الشغف ، ويزهو غراماً في فسحة الحبّ ، ويزداد عشقاً في غمار الإرادة . فالحلم لا يستطيع إلاّ أنْ يكون حاضراً شهيّاً يمضي إلى غدهِ مترعاً بالنشوات والرغبات والتّفنّنات والتّأمّلات والفتوحات .

أنْ ترى حلمكَ في عينيك وقد غدا لامعاً ومتوهّجاً وناصعاً . ذلكَ يعني أنّكَ تحرسه وترعاه وتحافظ عليه ، وتقاتلُ من أجل أنْ يبقى يافعاً في قلبك ، وفتيّاً في عزيمتك ، ومُتوقّداً في ذهنك ، وناطقاً في خطواتك ، وأنيقاً في أخلاقك ، وبهيّاً في حضورك .

ما أجمل ذلك الحلم الذي ينساب شهيّاً في ثمالة الرُّوح ، يستلهمُ من ارتقاءاتها في مدارج المعرفة نضج المرحلة ، وبريق الفهم ، ويقين التواصل ، ودفقة الاطمئنان ، ووضوح الطريق ، وصلابة الفكرة ، وجمال التّعالق .

الحالمونَ يعتقدون دائماً بأنّ هناك في الحياةِ متَّسعاً للحلم . إنّهم بذلك يفتحون باباً يطلُّ على الأفق الفسيح في ذواتهم . إنّهم يعرفونَ جيّداً بأنّ الحياة في جانبٍ منها مُربكة حدَّ التعقيد ، وقد تبدو في ظاهرها جامدة ومملّة ومحشورة في دروبٍ ملتوية ، ولكنّهم على الرغم من ذلك لا يفقدون احساسهم الرهيف بالحلم . إنّهم يتجاوزونَ كلّ ذلك من خلال ذواتهم السابحة في ملكوت الحبّ والحريّة والإبداع ، ويملكونَ في الوقتِ ذاته مهارة التحرَّر من لعنة التعقيدات الخانقة . لأنّهم يتخفّفونَ دائماً من أثقالها بما يملكونهُ من نظرةٍ ملهمةٍ ومتفكّرة للحياة ولأنفسهم ، ولكلّ ما يتداخلونَ معه بِذات الشغف والغرام .

إنّهم يتخلّقونَ فيضاً كثيراً في أحلامهم ، ولكنّهم في الاتّجاهِ ذاته لا يفقدونَ حماستهم لأفكارهم . إنّهم يعرفون أنّ الأفكار تنبتُ في أحيانٍ كثيرة من أحلامهم ، حينما تكون أحلامهم في مستوى إبداعهم وفي مستوى تجلّياتها المفعمة بالضّوء والرحابة والخَلق .

ولا يكونُ الحلمُ حلماً إلاّ وهوَ يبحثُ عن نفسهِ في أفكاره . في أفكارهِ تحديداً ، وليسَ في أفكار غيرهِ . لأنّه في أفكارهِ يملكُ أنْ يكونَ حرَّاً ومُبدعاً ، ويملكُ وعيه في أنْ ينجو من كارثة الأفكار العقيمة ، ويملكُ أنْ يمنح تجربته في أفكارهِ زخماً جديداً من الفهم والتفكّر والحريّة ، ويملكُ أنْ يفهمَ أنّ في أفكارهِ تصفو الحقيقة ويجلو الطريق .

إنّه الحلم يزهو وقوراً في جلال الصَّمت ، ويستلهم من الصَّمتِ نقاء الحضور وصفاء التّفكير ولذّة الانعزال . إنّه يجيد صمته مستمتعاً به ومتجلّياً في فضاءاته . ويجيد في الوقتِ ذاته حمايته من فوضى الصَّخب ومن بريق الاستعراض الزائف والأضواء الرديئة . إنّه الصَّمت الخلاّق الذي يمنح الحلمَ متعة البحث عن إجاباته التي يبقى يتعقّبها دائماً في دروب الفكر والسؤال والنقد .

الذاهبونَ دائماً إلى حاضرهم ، يجدونَ أنفسهم يعانقون أحلامهم ، يعانقونها كما لو إنّها لم تولد بعد . إنّهم بذلك يخترعونَ لحاضرهم أحلاماً مفعمة بالألق والمتعة واللذّة ، ويركضونَ خلفها في شغفٍ لا ينقطع ، لأنّهم يعرفونَ بأنّ الحياة الخالية من الحلم والمتعة والشغف عادةً ما تتلّقى الهزيمة في مواجهة الواقع المريع ، بينما الحلم الشغوف بمتعة الحاضر يمنح الحياةَ ألواناً زاهية وآفاقاً ملهمة ودروباً فسيحة وأفكاراً مضيئة وإبداعات خلاّقة .

والحلم مغامرة العشقِ والخَلق . إنّها المغامرة الأشهى في نظر الحالمين . إنّهم يجدونَ في الحلم عشقاً يجعلهم أكثر قُرباً من أشيائهم التي تفعمهم لذّة التواصل مع ذواتهم ، وتدفع بهم نحو مغامرةٍ أشهى في فنون الإبداع والتفكّر. ويجدونَ في الحلم خَلقاً يبرع كثيراً في تقصّي آفاق الدهشةِ في عقولهم وفي تفكيرهم . هذا الحلمُ عاشقٌ حرٌّ يسافر طويلاً في الفراغ الشّاسع والبعيد ، يستدعي من أقاصيه

جنونه المتفرّد .

والحالمونَ يعرفونَ جيّداً بأنّ الطَّريق الذي يأخذهم إلى ناحية الحلم ، هو الطَّريق ذاته الذي يضعهم عشّاقاً مفتونينَ على جهة الحريّة والحبّ والجمال . فالحلم طريقٌ وجِهة ، وطريقٌ إلى جهة ، وجهةٌ على طريق . إنّهما يتكاملان في صناعة حالة العشق . الحالة التي تختبر نفسها في نفسها وهيَ تَتهادى هياماً في الطَّريق والجهة . فالطَّريق امتدادٌ ومسير والجهة مأوىً وملاذ ، وفيهما يختالُ الحلم امتداداً ويَتكوّنُ ملاذاً . فَفي الامتداد فتنة البدايات الساحرة ومخاضاتها الوامضة في رحابات الفكر والتفلسفِ . وإنّه الامتداد الذي لا شيءَ فيه ينتهي ويكتظُّ دوماً بالحياة والحركة . وفي الملاذ دفء التوقّفات الهادئة والمراجعات المثمرة ، وفيه أيضاً جمال الحصاد الوافر وعشق التّجربة الظّافرة .

والحالمونَ مسكونونَ بهاجس العبور . يعبرونَ دائماً من هنا إلى هناك ، ومن هناكَ إلى هنا . إنّهم يعبرون وفي عبورهم تلخيص وميض لِتجربةٍ كاملة . فالعبور في ثقافتهم يعني أنّكَ تجتاز المراحل وأنتَ شديد القُربِ من تعالقكَ المستهام مع الأفكار والتساؤلات والتحوّلات . وفي عبوركَ تخطو متخفّفاً من أثقال المعيقات الخانقة ، ومتخفّفاً من تراكمات اليقينيّات الهادمة ومن بؤس التعقيدات الهالكة . إنّه العبور الأجمل من حيث أنّه يمضي دافقاً بالتنوّع والتّفنن والاشتهاء ، ويمضي في الوقتِ ذاته وهوَ يحتفظُ بما لديه من رصيد الذاكرة المشعَّة والتجربة المثمرة والفهم المستنير والمعرفة الناقدة .

وأمّا أولئكَ التّواقون للحياةِ في اشتهاءات الحلم ، فيبدعون كثيراً في تلوينات الحضور على قيد العشق والتوهّج والاشتياق . لأنّهم يبرعونَ في فعل الانحياز الناصع للحريّة . إنّهم يمارسونَ حريّتهم هذهِ حلماً مضيئاً في متعة العقل والتفكير ، ويجدونَ إنّها تمنحهم ترف التواصل الجميل مع ذواتهم التي تنتشي حضوراً لذيذاً في تدفقات العشق والاشتياق والمتعة . وكلّ هذا الشعور الدافق بِعشق الحريّة في أعماقهم من شأنهِ بالضَّرورة أنْ يبعثهم عشّاقاً يتلهفونَ اشتياقاً بتواصلهم مع أحلامهم ، وهيَ ترنو إليهم في جهارة الحبّ والألوان والرغبات .

ومَن يخترع حلماً ويتعايش معه بِذات القدر من الحلم نفسه ، يكونُ قد استدعى طاقة الخَلق والمغامرة والحماسة الكامنة في أعماقهِ . الطاقة التي تدفعه نحو اختراع أساليبه وطرائقه في تعالقاته المحبّبة مع الحياة . إنّه هنا يرى بأنّ الحلم اختراع جميل يدفعه نحو تبنّي أسلوبه وطريقته في التعالق مع كلّ ما من شأنهِ أنْ يجعله شغوفاً وعاشقاً لحلمهِ . ومستمدّاً طاقته تلك وإرادته وعنفوان تصميمه من كلّ الشغف والعشق اللذان يسكنان ذهنه وتفكيره وقلبه ، ويملآن حياته بالحركة والتطلّع والتغيير والإبداع .

ومَن يعرفُ بأنّ الحياة عادةً ما تمضي إلى هنا وهناك ، ولكنّه على الرغم من ذلك أصبح يعرفُ جيّداً بأنّ ما يبقى له من كلّ ذلك هو حلمه ، حتّى لو أنّ كلّ ما هناكَ سينتهي إلى الجمود أو القيْد أو الفناء . لأنّه يملكُ أنْ يكونَ حرَّاً في حلمه ، ويملكُ حلمه شعوراً يَتشاسع حرَّاً في قلبه الطَّليق .

الحالمونَ عادةً ما يذهبونَ بعيداً . يذهبونَ إلى أقصى الحياةِ في عقولهم ، ويذهبونَ بعيداً بكلّ ما في كيانهم من وميض الحدس وجذوة العاطفة ودفء المشاعر . إنّهم هنا قد يغادرونَ ذواتهم بحثاً عن ذواتهم في حلمٍ جديد . إنّهم هنا لا يفقدونَ تواصلهم الحميميّ مع أصل ذواتهم ، فقط يريدونَ أنْ يعرفوا لماذا عليهم أنْ يعودوا إلى ذواتهم من جديد ، ولماذا عليهم أنْ يكونوا مرَّةً أخرى في مركز الذات ؟ هذه العودة جديدهم في مخاض الحلم . جديدهم الذي يتجلّى في الذات حلماً ، وجديدهم الذي يمنحهم فهماً أعمقَ لذواتهم وفقاً لقناعاتهم التي تَتضافر حلماً ملهماً في كلّ جديدٍ ومتغيّر .

وقد يكونُ الحلمُ أشبه بِقصَّة ، نبقى نكتبها في تعاقبات اللحظات والنشوات والرغبات والشهوات ، وفي تجلّيات الحكايات والتأمّلات والخيالات . نكتبها وكأنّها حديث الأمس للغدِ أو وكأنّها حديث اليوم للغد أو ربما وكأنّها حديث الغدِ لِلغدِ . هكذا في أحيانٍ كثيرة يكتب الحلم قصَّته ، أو تكتب القصَّةُ حلمها ، وفي كلّ فصل من فصولها يودع الحلمُ شيئاً من نسيج ذاكرتهِ المضيئة . إنّها الذاكرة التي تتشكّل حلماً في يقين الحريّة ولا شيءَ سواها ، وتبقى تمضي حرَّةً في البعيدِ من القريب وفي القريبِ من البعيد ، تلاحق الضّوءَ في دهشة المسافات .

وما أجملَ أولئك الذين يرتادون الأحلام ، وفي قلوبهم دفقٌ من الدفء والاطمئنان والوداعة . إنّهم لا ينهزمونَ أمام بشاعة الواقع ، ولا ينهزمونَ في مواجهة القبح والدمامة . إنّهم يصنعونَ من أحلامهم عالماً يشعُّ بِالتّوقِ الشهيّ لِتلكِ المراحات المفعمة بصنائع الإبداع الإنسانيّ . لأنّهم يحسبونَ الحلمَ جمالاً ينتصرونَ به على الواقع المريع ، ولا يستطيع القبح أنْ ينال شيئاً من جمال أحلامهم ، لأنّهم يرتقونَ دائماً في معارج الحريّة والحبّ والألق والضّوء .

ومَن يجترحُ حلماً ، يجترحُ في الوقتِ نفسه تجربةً في التأمّل والاستنطاق والتنوّع والإبداع . فالحلم هنا دائماً ما يستطيع أنْ يجد طريقةً للحياة ، وفي تجربتهِ الناطقة ثمة طريقة للحياة . إنّها الطريقة التي تستخلص من تجربتها في الحلم طريقةً في استدعاء أفكارها وتأمّلاتها واستنطاقاتها وتنوّعاتها للتعالق الجماليّ مع كلّ ما يعتملُ في إبداعاتها من فنون الابتكار والتواصل والخَلق . وهيَ الأشياء ذاتها التي تبقى تمدُّ أعماقهِ بالحبّ والإحساس والعاطفة والحماسة والتوهّج ، وهي ذاتها التي تُخبِرهُ بأنّه في انسجامٍ تفاعليّ مع جوهر حلمهِ وجوهر اختياره وقراره وحريّته .

كيف لا والحلم يتجلّى دوماً في ذاكرة مشعَّة . لأنّه في أصلهِ يتمثّلُ في تجربةٍ إنسانية ، والتجربة من شأنها أنْ تتخلّق دائماً في ذاكرةٍ متحركة وفاعلة ، وتعكس تالياً في اشتهاءاتها المعرفيّة ثقتها الكبيرة بمفاهيمها التي تجدها في الأساس إنسانيّة الفكرة والجوهر والمسعى ، وتملكُ في الآنِ نفسه خاصيّة الانسياب الحرّ بمفاهيمها الإنسانيّة إلى ذاكرةٍ تمتدُّ بعيداً في الزمن والمعاني والثقافات والمعرفيّات والآفاق . فالمفاهيم في مخاضات الحلم هنا ليست محشورة في سياقات دينيّة تتكوّمُ تحت أطرٍ ضيّقة ، وليست محشورة أيضاً في معتقداتٍ خانقة لا تملكُ التخلّص من طابعها الزمنيّ المحدود والمحدَّد .

وأكثر الحالمينَ شغفاً بالحريّة والتّفنّن والحياة التّواقة للحبّ والجمال ، يعتقدونَ منشرحينَ بِأنّ ما يملكونه من حريّةٍ في أحلامهم ، وحلماً في حريّتهم ، يكفي ذلك لكي يجعلهم يشعرونَ بِنشوة السعادة بما لديهم من حلمٍ يصنعونه في أعماقهم وفي وعيهم وفي ذاكرتهم . ويشملونهُ دائما بالرعايةِ الفائقة ، وحتّى لو تلقّوا هزيمةً من هنا أو هناك في أحلامهم ، إلاّ أنّهم يبقونَ يحافظون على أناقتهم العقليّة والفكريّة والشعوريّة في طريق الاكتمال .

Share